مقررات معهد
المنهج الدراسي الميسر

رسالة شرعية عالمية
معهد المنهج الدراسي الميسر
من المستوى الأول إلى الثاني عشر

شرح ومختصر

أصول السنة

لابن أبي زمنين (٣٩٩هـ)

تأليف
أبي عبد الله محمد المصنعي
وفقه الله تعالى


رسالة شرعية عالمية
معهد المنهج الدراسي الميسر
من المستـــوى الأول إلى الثـــاني عشـــر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم.

أما بعد:

فهذا شرح ميسر علىٰ صحيح كتاب (أصول السنة لابن أبي زمنين رحمه الله تعالىٰ) يتناسب مع مقرارت (المعهد المنهج الدراسي الميسر) والله المستعان.

كتبه

أبو عبد الله المصنعي

١٤٣٠ هـ اليمن دار الحديث معبر

****

ترجمة ابن أبي زمنين

اسمه:

محمد بن عبد الله بن عيسىٰ بن محمد المري الألبيري، أبو عبد الله الأندلسي، اشتهر بـ(ابن أبي زمنين).

مشايخه:

كان رحمه الله تعالىٰ مكثراً عن الشيوخ، ومنهم: محمد بن معاوية الأموي، وأحمد بن مطرف الأزدي، ووهب بن ميسرة الحجازي، وأحمد بن الشامة، وإسحاق الطليطلي، وغيرهم.

تلامذته:

وهم كثير، ومنهم:

أبو عمرو الداني، وأبو عمر بن الحذاء، والقاضي ابن مغيث، وغيرهم.

عقيدته:

كان علىٰ هدي السلف، كما يدل عليه كتابه هذا وثناء العلماء عليه.

ثناء العلماء عليه:

قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالىٰ: الإمام القدوة الزاهد ... شيخ قرطبة، وكان صاحب جدٍّ وإخلاص، ومجانبة للأمراء، مقتفيًا لآثار السلف، صاحب عبادة وإنابة وتقوىٰ(١).

وقال ابن عفيف رحمه الله تعالىٰ: كان من كبار المحدثين والفقهاء الراسخين في العلم(٢).

(١) "السير" (١٧/ ١٨٨)، "العبر" (٢/ ١٦٦).

(٢) "ترتيب المدارك" (٧/ ١٨٤).

وقال ابن مفرج رحمه الله تعالىٰ: كان من أجلِّ أهل وقته حفظًا للرأي ومعرفة بالحديث واختلاف العلماء، وافتنانًا في الأدب والأخبار وقرض الشعر، إلىٰ زهد وورع واقتفاء لآثار السلف، وكثرة العمل والبكاء والصدقة والمواساة بماله وجاهه، وبيان ولهجة، ما رأيت قبله ولا بعده مثله[١].

وقال الخولاني رحمه الله تعالىٰ: كان رجلاً زاهداً صالحًا من أهل العلم، وله رواية واسعة، وكان حسن التأليف مليح التصنيف[٢].

مؤلفاته:

وهي كثيرة، منها:

١- أصول السنة.

٢- تفسير القرآن.

٣- منتخب الدعوة.

٤- آداب الإسلام.

٥- حياة القلوب في الزهد والرقائق. وغيرها.

وفاته:

توفي عام (٣٩٩هـ) ببلده الألبيرة، ودفن فيها.

كتابه "أصول السنة":

يعتبر من أهم كتب الاعتقاد، ولا يزال العلماء ينقلون منه ويدرسونه، ويوصون بحفظه وقراءته، وقد نقل شيخ الإسلام في كتابه "الحموية الكبرىٰ" شيئًا منه وفي غيره.



(١) "ترتيب المدارك" (٧/ ١٨٤).

(٢) "الترتيب" (٧/ ١٨٤)، وانظر بقية ثناء العلماء عليه في مقدمة تحقيق الكتاب (ص ١٦-١٨) ط. الغرباء.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال أبو عبد الله الفقيه محمد بن عبد الله بن أبي زمنين:

الحمد لله الذي يُشْكَر علىٰ ما به أنعم، وعاقَب علىٰ ما لو شاء منه عصم، وصلىٰ الله علىٰ محمد خاتم النبيين، وعلىٰ آل محمدٍ أجمعين.

الشرح

الابتداء بالبسملة سنة مشهورة، كما سبق بيانه غير مرة.

قوله: (وصلىٰ الله ...) صلاة الله علىٰ رسوله هي: ثناؤه – سبحانه – عليه، وإظهار لفضله وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه(١).

قوله: (وآله وصحبه) الآل هنا: الأتباع، المؤمنون من بني هاشم وغيرهم.

والصحابي: هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات علىٰ ذلك.

قوله: (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) أي: لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: لا حول عن معصية الله تعالىٰ إلا بعصمته، ولا قوة علىٰ طاعته إلا بمعونته(٢).

الحمد لغة: الثناء.

وشرعًا: الثناء علىٰ الله عز وجل بصفات الكمال ونعوت الجلال والأسماء الحسنىٰ، مع المحبة والتعظيم والتذلل.

---

(١) "جلاء الأفهام" (ص ٧٨).

(٢) انظر "شرح مسلم" (١٧/ ٢٢) عند حديث رقم (٢٧٠٤).

وقال ابن القيم: الحمد: إخبار عن محاسن المحمود مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه(١).

وأما الشكر: فهو الثناء على المنعم بالقلب واللسان والجوارح.

والحمد والشكر بمعنى واحد في الجملة كما قرره ابن جرير، وقال: وقد قيل: (الحمد لله) ثناء على الله بأسمائه وصفاته الحسنى.

وقوله: (الشكر لله) ثناء عليه بنعمه وأياديه(٢). وجنح ابن القيم للتفريق في المعنى.

ودخول (أل) في الحمد مبني على أن معناه: جميع المحامد والشكر الكامل لله(٣).

قوله: (على ما به أنعم) قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، ووصف عباده بأنهم يحمدونه ويشكرونه على نِعَمه، فقال عز وجل: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

قوله: (وعاقب) بعدله وحكمته (على) الذنوب التي (لو شاء منه عصم) أي: لو شاء أن يعصم العباد فلا يذنبون لفعل كما قدَّر ذلك في الملائكة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢].

والعقاب على الذنوب يكون بما كسبه العبد بإرادته.

وإن كانت إرادته تابعة لمشيئة الله تعالى الكونية، إلا أن الله تعالى جعل له مشيئة واختياراً،

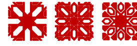
(١) "البدائع" (٢/ ٩٣).

(٢) (١/ ١٣٧-١٣٨).

(٣) انظر "تفسير الطبري" (١/ ١٣٨)، "البدائع" (٢/ ٩٣-٩٥)، "المدارج" (١/ ٦٤)، "الفتاوى" (٨/ ٣٧٨).

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [الشمس:٨]. وانظر ما سيأتي في باب القدر.

قوله: (خاتم النبيين) قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وقال ﷺ: «لا نبي بعدي»(١).



(١) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وأعوذ باللهِ من هوًىٰ مضلٍ، وعملٍ غير متقبَّل، وأسأله الزيادةَ في اليقين، والعون علىٰ اتباع سبيل المؤمنين.

الشرح

قوله: (أعوذ) ألجأ وأعتصم (بالله) وحده لا شريك له.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالىٰ: الاستعاذة بالله تعالىٰ، وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به، واعتقاد كفايته، وتمام حمايته من كل شيء حاضر أو مستقبل، صغير أو كبير، بشر أو غير بشر، ودليلها قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق:١-٢][(١)].

قوله: (هوى مضل) الهوىٰ مفرد أهواء، وهوىٰ يهوي بمعنىٰ: سقط ومال.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلىٰ العلماء والعباد يُجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدي الله الذي بعث به رسوله ﷺ. اهـ[(٢)].

والهوىٰ سمي بهذا الاسم؛ لأنه يهوي بصاحبه إلىٰ الضلالة والفُرْقة، ثم إلىٰ النار، واقرأ حديث العرباض المشهور: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[(٣)].

(١) "شرح الأصول الثلاثة" (ص ٦٣).

(٢) "الاستقامة" (٢/ ٢٢٤-٢٢٥).

(٣) وانظر "الاعتصام" (١/ ٦٥-٦٦).

قوله: (مضل) أي: يَضل به العبد عن الحق، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة ص:٢٦]، والمبتدع قدَّم هوىٰ نفسه علىٰ هدىٰ ربه، فكان أضل الناس(١).

قوله: (وعمل غير متقبل) لا يقبل الله تعالىٰ العمل إلا إذا كان خالصًا لوجهه الكريم، وموافقًا لشرعه الكامل العظيم، فإذا فقد واحداً منهما كان مردوداً، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا وافق الكتاب والسنة، فإذا خالفهما فهو بدعة مردودة غير مقبول، وهكذا العمل إذا خُلط بالشرك لا يقبل، ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان:٢٣](٢).

قوله: (وأسأله الزيادة في اليقين) اليقين ضد الشك، واليقين هو كمال العلم والتصديق الذي لا يعتريه شك(٣).

قوله: (والعون) طلب العون من الله تعالىٰ توحيد وعبادة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: قال شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه -: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون علىٰ مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] (٤).

(١) "الاعتصام" (١/ ٦٦).

(٢) انظر "المدارج" (١/ ١٠٤)، وانظر شرحنا علىٰ "القول المفيد" باب: لا يقبل العمل إلا بشرطين. مع المراجع المذكورة هنالك.

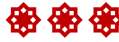
(٣) وانظر "التعريفات العقدية" (ص ٣١١).

(٤) "المدارج" (١/ ١٠٠).

نسأل الله الكريم العون على مرضاته وذكره وشكره وحسن عبادته، ونسأله العون على شرح هذا الكتاب، وفَهم علم الكتاب والسنة كما يحب ويرضى.

قوله: (اتباع سبيل المؤمنين) قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء:١١٥]، المراد بالمؤمنين: الصحابة، وقيل: الأمة المحمدية.

وسبيل المؤمنين: طريقهم في العقائد الصحيحة والأعمال، أي: شريعة الإسلام، الكتاب والسنة.



وبعد: فإن بعض أهل الرغبة في اتباع السنة والجماعة سألني أن أكتب له أحاديث يُشرِف علىٰ مذاهب الأئمة في اتباع السنة والجماعة، الذين يُقتدىٰ بهم ويُنتهىٰ إلىٰ رأيهم وما كانوا يعتقدونه ويقولون به في الإيمان بالقدر، وعذاب القبر، والحوض، والميزان، والصراط، وخلق الجنة والنار، والطاعة، والشفاعة، والنظر إلىٰ الله عز وجل يوم القيامة.

الشرح

قوله: (وبعد) كلمة يؤتىٰ بها للانتقال من المقدمة إلىٰ الموضوع.

قوله: (يشرف علىٰ مذاهب الأئمة) أي: يطلع علىٰ عقيدتهم الموافقة للكتاب والسنة.

قوله: (السنة والجماعة) السنة: هدي رسول الله ﷺ، وذلك شامل للكتاب والسنة.

وأهل السنة: هم من اتبع الكتاب والسنة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

والجماعة: هم من اجتمعوا علىٰ الكتاب والسنة، ولزموا إمام المسلمين وجماعتهم – أي: جماعة المسلمين –.

وكما أن أهل البدعة والافتراق: هم من خالفوا الكتاب والسنة في عقيدتهم ومنهجهم، وفارقوا إمام المسلمين وجماعة المسلمين.

قوله: (الذين يقتدىٰ بهم ...) المراد يقتدىٰ بهم في اتباع الكتاب والسنة.



فأجبتُه بما سأل عن تأليف هذا الكتاب، وزادني رغبة فيه ما رأيته من حرصه علىٰ تعلُّم ما يلزم تعلمه، ولا عذر لجاهل في ترك السؤال، والبحث عن أصول الإيمان والدين وشرائع المسلمين، وقد ألزمه الله عز جل ذلك بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، وكذلك لا عذر لعالم في كتمان ما يسأل عنه مما فيه كتاب ناطق أو سنة قائمة عمن يجهله، والميثاق الذي أخذه الله تبارك وتعالىٰ على العلماء في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

ولا توفيق إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

الشرح

قوله: (فأجبته بما سأل ...) وسبحان الله! ما أكثر الكتب التي أُلِّفت جوابًا لسؤال طالب علم ونفع الله تعالىٰ بها، ومن أجلِّ هذه الكتب "صحيح مسلم"، فإنما ألَّفه بعد سؤال بعض الطلبة.

قوله: (وزادني رغبة فيه ما رأيته من حرصه ...) ينبغي للطلبة إظهار الرغبة في التعلم والحرص والجد فيه؛ فإن ذلك حافز للمدرس علىٰ الاجتهاد معهم.

وذكر شيخنا رحمه الله تعالىٰ في جامعه بابًا[1] [قول الطالب للمعلم: (زدني)] وذكر حديثًا: وقد ذكر الله تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام قوله للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦] الآيات. وفيها إظهار الرغبة في تعلم العلم من الخضر عليهما السلام.

قوله: (ما يلزم تعلمه) يجب تعلم العقيدة، ومن العبادة يجب تعلم ما تصح به عبادة العابد،

---

(١) في "جامعه الصحيح" (١/ ٩١).

وهكذا المعاملات التي يمارس العامل[1].

قوله: (ولا عذر لجاهل في ترك السؤال ... إلخ) اختلف العلماء في عذر الجاهل في العقيدة والتوحيد ونحو ذلك، وأحسن الأقوال: أن من كان جاهلاً بعذر، كأن يكون حديث عهد بإسلام، أوكان في مكان يصعب عليه لقاء أهل العلم وسؤالهم ونحو ذلك فهو معذور بجهله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وأما من كان جاهلاً لتقصيره في التعلُّم وسؤال أهل العلم فهذا لا يعذر، وقد نقل بعض العلماء الإجماع علىٰ ذلك – والمسألة خلافية–، ورجح هذا الشيخ ابن باز واللجنة الدائمة وغيرهم[2].

قوله: (أصول الدين ...) أي: مسائل الاعتقاد التي سبق أن أشار إليها، وما أشبه ذلك، وسيذكرها مفصلة.

قوله: (لا عذر لعالم في كتمان ما يسأل عنه ...) روىٰ أبو داود[3] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة».

فقوله: «من سئل عن علم» أي: مما يحتاج إليه السائل في أمر دينه الواجب، «فكتمه» بعدم الجواب أو بمنع الكتاب – دون عذر–، «ألجمه الله» عقوبة له، «بلجام من نار» مكافأة له؛ حيث ألجم نفسه بالسكوت. اهـ

قوله: (ولا توفيق إلا بالله) التوفيق: الرشد وإصابة الحق.

ومعنىٰ الجملة: استعانة بالله تعالىٰ أن يرشده ويلهمه إصابة الحق والسداد في القول والعمل.

---

(١) انظر "كتاب العلم" للإمام العثيمين (ص ٢١)، وانظر "فتاوىٰ المرأة المسلمة" للإمام الوادعي (ص ٦٢-٦٣).

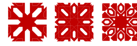
(٢) انظر كتاب "عارض الجهل" (ص ٤٤٠ – وما بعده إلىٰ آخر الكتاب).

(٣) السنن مع عون المعبود (١٠/ ٩١).

قوله : (عليه توكلت) في جميع أموري، ومعنىٰ التوكل: اعتماد القلب علىٰ الله تعالىٰ كفاية وحسبًا في جلب المنافع ودفع المضار[١]. والمعنىٰ هنا: عليه توكلت في تأليف هذا الكتاب، والله أعلم.

قوله : (وإليه أنيب) أي: أرجع، الإنابة: الرجوع والتوبة الصادقة.

والإنابة تقال لمن طمع في الثواب، والتوبة لمن خاف العقاب، والكمال الجمع بين رجاء الثواب والخوف من العقاب.



(١) "شرح الأصول الثلاثة" للعثيمين (ص ٥٨).

١- باب فِي الْحَضِّ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ الْأَئِمَّةِ

اِعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّ السُّنَّةَ دَلِيلُ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهَا لَا تُدْرَكُ بِالْقِيَاسِ، وَلَا تُؤْخَذُ بِالْعُقُولِ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي الِاتِّبَاعِ لِلْأَئِمَّةِ، وَلِمَا مَشَى عَلَيْهِ جُمْهُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَقْوَامًا أَحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٧-١٨]. وَأَمَرَ عِبَادَهُ فَقَالَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

الشرح

(الْحَضِّ) الحث على الخير، (عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ) أي: الشريعة: الكتاب والسنة. (وَاتِّبَاعِ الْأَئِمَّةِ) في السير على الكتاب والسنة، وهذا كقول الآخر: على فَهْم سلف الأمة.

قال أبو العالية رحمه الله تعالى: عليكم بالأمر الأول[(١)].

وقال الأوزاعي رحمه الله تعالى: عليك بآثار من سلف[(٢)].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: فإن الهدى يدور مع الرسول ﷺ حيث دار، ويدور مع أصحابه – دون أصحاب غيره – حيث داروا ... وكل قول قيل في دين الإسلام مخالف لما كان عليه الصحابة والتابعون لم يقله أحد منهم، بل قالوا بخلافه فإنه قول باطل[(٣)].

---

(١) "الحلية" لأبي نعيم (٢/ ٢١٨)، صحيح.

(٢) الآجري (١٢٧). صحيح.

(٣) "منهاج السنة" (٥/ ٢٦٢-٢٦٣).

فهذه الآثار تدل علىٰ أنه لابد مع اتباع الكتاب والسنة أن يكون علىٰ فهم السلف الصالح: الصحابة ومن تبعهم بإحسان من الأئمة الأعلام أهل الحديث والأثر، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [البقرة:١٣٧]، فالهداية في السير علىٰ منهج السلف الصالح الذين أثنىٰ الله عليهم، فقد كانوا علىٰ الكتاب والسنة.

قوله: (اِعْلَمْ) قال الشيخ صالح الفوزان - رحمه الله تعالىٰ وحفظه -: (اعلم) هذه الكلمة يبدأ بها في التنبيه إلىٰ الأمور المهمة(١).

والعلم النافع: معرفة الهدىٰ بدليله.

والعلم عند الإطلاق هو: معرفة المعلوم بدليله.

قوله: (رَحِمَكَ ٱللهُ) صنيع المؤلف – رحمه الله تعالىٰ – يدل علىٰ عنايته وشفقته بالمخاطب وقصد الخير له، حيث جمع له بين التعليم والدعاء.

قوله: (أَنَّ ٱلسُّنَّةَ دَلِيلُ ٱلْقُرْآنِ) المراد بالسنة هنا الأحاديث، ومعنىٰ (دليل القرآن) تفسره وترشد إليه وتبيِّن معناه.

قوله: (وَأَنَّهَا لَا تُدْرَكُ بِالْقِيَاسِ) القياس: تشبيه فرع بأصل لعلة جامعة بينهما.

قوله: (وَلَا تُؤْخَذُ بِالْعُقُولِ) أي: بالآراء، فالعقل لا يستقل بمعرفة السنة، وإنما تعرف بالوحي.

قوله: (وَإِنَّمَا هِيَ فِي ٱلِاتِّبَاعِ لِلْأَئِمَّةِ) أي: الصحابة والتابعين لهم بإحسان – كما سبق.

قوله: (وَلِمَا مَشَىٰ عَلَيْهِ جُمْهُورُ هَذِهِ ٱلْأُمَّةِ) لأن غالب أمر الجمهور علىٰ صواب، والأصل في اعتبار الجمهور: العلماء المتمسكون بالسنة، فهؤلاء أمرهم إلىٰ السداد، وقَلَّ أن تجد مسألة في العقيدة خالف جمهور العلماء فيها الصواب.

---

(١) "شرح كشف الشبهات" (ص ١٨).

قوله: (﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾) الآية. أثنىٰ الله عليهم لأنهم عند سماع الأقوال يتبعون أحسن القول ويتركون ما دونه، وأحسن القول: كلام الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا ...﴾ [الزمر:٢٣]، ثم وصفهم بأنهم الذين هداهم الله تعالىٰ لهذا الاتباع وهداهم لأحسن العقيدة وأحسن العمل، ومن كان يتبع كلام الله تعالىٰ وكلام رسوله فهو صاحب العقل الزكي والفهم النقي.

قوله: (﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾) الآية. أضاف الصراط إليه لفائدتين:

الأولىٰ: تعيينه واختصاصه، وأنه صراط واحد.

الثانية: أنه لا يصل إليه أحد إلا من سار علىٰ هذا الصراط المستقيم، واستقام باستقامته.

(﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾) أي: الزموا السير عليه والتمسك بما فيه.

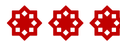
(﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾) السبل المخالفة، وهي كثيرة، ولذلك ذكرها بلفظ الجمع، ثم وصفها بالفُرْقة، أي: مفارقة الصراط المستقيم.

(﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ﴾) أي: بمن سار عليها.

(﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾) الصراط المستقيم.

(﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾) وصاكم بلزوم الصراط المستقيم.

(﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾) فمن سار عليه استقام وصار من المتقين ووُقي عذاب الجحيم.

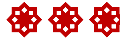


(١/ ١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، وَقَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الْآيَةَ[(١)].

الشرح

سبيل الله تعالىٰ واحد، وهو كتابه وسنة نبيه ﷺ، وسُبل الباطل كثيرة مختلفة معوجة، من سار عليها اعوجَّ باعوجاجها، ومن ادَّعىٰ الاستقامة مع السير علىٰ هذا السُّبل فقد تناقض.

قوله: («... شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ») الشيطان هنا نكرة، والنكرة تفيد العموم، فهو شامل لشياطين الجن والإنس الذين يدعون إلىٰ ترك الصراط المستقيم، والعجيب أن اعوجاج هذه السبل يخفىٰ علىٰ كثير ممن جهل الصراط المستقيم، فيتبعون شياطينها، ولا يثبت علىٰ الحق إلا القليل، وأكثر الناس يغترون بكثرة السبل وكثرة دعاتها فيضلون وراءهم ... اهـ[(٢)].



(١) صحيح من طرق وله شواهد كثيرة. أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥)، وابن وضاح (٧٨).

(٢) من شرحنا علىٰ "كتاب ابن وضاح".

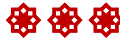
(٢/ ٢) عَنِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

الشرح

رغب عن كذا أي: تركه وأعرض عنه. (سنتي) طريقتي وشريعتي.

(مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي) أي: من أعرض عنها وتركها اعتقاداً منه أن ما هو عليه من المخالفة أفضل وأنفع؛ فهذا كفر، ويكون معنىٰ (فَلَيْسَ مِنِّي) ليس علىٰ ملَّتي، بل كافر.

وإن أعرض عن السنة بنوع تأويل أو اجتهاد؛ فهذا لا يكفر، ويكون معنىٰ (فَلَيْسَ مِنِّي) أي: ليس علىٰ طريقتي، بل هو مبتدع مخالف للسنة.



(١) مرسل. وصح عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعـًا: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣/ ٥) عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

الشرح

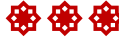
(كُلُّ) من ألفاظ العموم.

(بِدْعَةٍ) العبادة والرأي المخترع في الدين.

(ضَلَالَةٌ) تضل عن الحق لا هدىٰ فيها.

وقال ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: (كل بدعة ضلالة) من جوامع الكلم، لا يخرج عنها شيء.

وقال الحكمي رحمه الله تعالىٰ: البدع كلها مردودة، ليس منها شيء مقبولاً، وكلها قبيحة ليس فيها حسن، وكلها ضلالة ليس فيها هدىٰ، وكلها أوزار ليس فيها أجر، وكلها باطل ليس فيها حق. اهـ (٢).



(١) حسن. أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، وصححه الشيخان الألباني والوادعي.

(٢) شرحنا علىٰ "كتاب ابن وضاح" (٥٧).

(٤/ ٨) عَنْ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ أَصْحَابَ ٱلرَّأْيِ أَعْدَاءَ ٱلسُّنَنِ أَعْيَتْهُمْ أَنْ يَحْفَظُوهَا وَتَفَلَّتَ مِنْهُمْ أَنْ يَعُوهَا، وَاسْتَحْيَوْا حِينَ سُئِلُوا أَنْ يَقُولُوا: لَا نَعْلَمُ، فَعَارَضُوا ٱلسُّنَنَ بِرَأْيِهِمْ»(١).

الشرح

(إِنَّ أَصْحَابَ ٱلرَّأْيِ) الرأي المراد به أمران:

الأول: الآراء المبتدَعة المخالفة للسنن في الاعتقاد وغيره، وهذا شامل لجميع البدع.

الثاني: الاستحسانات والظنون والأغلوطات والفتوىٰ بدون دليل، وتفسير الأدلة بمجرد الرأي، ونحو ذلك.

ويجمع ذلك: القول في الدين بدون دليل(٢).

وقال الشاطبي رحمه الله تعالىٰ: ... الرأي المذموم، وهو المبني علىٰ غير أُس، والمستند إلىٰ غير أصل من كتاب وسنة، لكنه وجه تشريعي، فصار نوعًا من الابتداع، بل هو جنس فيها، فإن جميع البدع إنما هي رأي علىٰ غير أصل، ولذلك وصف بوصف الضلال.

ففي الصحيح عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعًا، ولكن ينزعه منهم بقبض العلماء، فيبقىٰ ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيُضلون ويَضلون»، فإن كان كذلك فذم الرأي عائد علىٰ البدع لا محالة(٣).

(١) صحيح لغيره. أخرجه ابن عبد البر في "الجامع" (٢/ ١٠٤١)، واللالكائي (٢٠١) وغيرهما.

(٢) مقدمة "الاستقامة" لشيخ الإسلام، وانظر "جامع بيان العلم" (٢/ ١٠٥٣-١٠٦٠)، "إعلام الموقعين" (٢/ ٨٨-١١٤) ط. ابن الجوزي. "الاعتصام" (١/ ١٦٦-١٧٢).

(٣) (١/ ١٦٦-١٦٧).

وأصحاب الرأي: قال سحنون وابن أبي داود: هم أهل البدع[(١)].

قلت: وهذا علىٰ تفسير الرأي بالبدع.

وعلىٰ التفسير الثاني: يشمل أهل البدع وغيرهم.

قوله: (أَعْدَاءَ اَلسُّنَنِ) سماهم بهذا؛ لأن الرأي المذموم مخالف للسنة، فالرأي بهذا يدعو إلىٰ هجر السنن ومخالفتها، وهذه عداوة عظيمة؛ فيها هدم للدين وهلاك المسلمين.

قوله: (أَعْيَتْهُمْ) أي: عجزوا وصعب عليهم (أَنْ يَحْفَظُوهَا) كما حفظها أهل الحديث وفقهاء الأمة، (وَتَفَلَّتَ) التفلت والانفلات: التخلص من الشيء فجأة، والمعنىٰ: لم يتمكنوا من وعيها، وما حفظوه لم يفهموه جيداً. (... يَعُوهَا) لم يتمكنوا من حفظها وفهمها فهمًا صحيحًا؛ لقلة علمهم، وعدم صبرهم علىٰ أخذ العلم والفهم من أهل العلم والفهم، وتصدروا للفتيا مع جهلهم، فسئلوا (وَاسْتَحْيَوْا حِينَ سُئِلُوا أَنْ يَقُولُوا: لَا نَعْلَمُ) فحملهم الشيطان علىٰ الكبر، فأفتوا بغير علم: برأيهم (فَعَارَضُوا اَلسُّنَنَ بِرَأْيِهِمْ) المخالف للسنة.

زاد ابن عبد البر في رواية: (فإياكم وإياهم)، وفي رواية: (فقالوا برأيهم، فضلوا وأضلوا)، هذا مآل الجري وراء الآراء.

و**قوله:** (إياكم ...) أي: احذروهم، واحذروا ما أحدثوه من الآراء المذمومة.

وأما الرأي غير المذموم فهو الموافق للحق، قال ابن المبارك رحمه الله تعالىٰ: ليكن الذي تعتمد عليه هو الأثر، وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث[(٢)].



(١) ذكره ابن عبد البر في "الجامع" (٢/ ١٠٤٢).

(٢) رواه ابن عبد البر (٢٠٤٣)، وسنده صحيح.

(٥/ ١١) عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «اِتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُمْ»[(١)].

الشرح

أي: اتبعوا الكتاب والسنة وطريق السلف – وهم الصحابة – فإن ذلك هو الحق المبين والشرع الكامل المتين.

(وَلَا تَبْتَدِعُوا) لا تخترعوا طريقة أو عبادة لم يدل عليها كتاب ولا سنة ولم تكن فيمن كان قبلكم من الصحابة، تزعمون أنها دين.

(فَقَدْ كُفِيتُمْ) بشريعة الإسلام الكاملة الميسرة بالكتاب والسنة، فلا حاجة إلىٰ البدع والمحدثات والآراء ...[(٢)].



(١) حسن. أخرجه ابن نصر في "السنة" (٦٦)، وابن وضاح (١٨)، ووكيع في الزهد (٣١٥)، وصححه العلامة الألباني في "كتاب العلم" لأبي خيثمة (٥٤).

(٢) وانظر "إعلام الموقعين" (٤/ ٤٧٦) للفائدة.

(٦/ ١٢) عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ، اِتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ»[١].

الشرح

(عَلَيْكُمْ) أي: الزموا، (بِالِاسْتِقَامَةِ) وهي العمل بطاعة الله تعالىٰ وتوحيده علىٰ علم، واجتناب معصيته والشرك به.

وقال ابن القيم: فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله علىٰ حقيقة الصدق والوفاء بالعهد ...

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله تعالىٰ روحه – يقول: أعظم الكرامة دوام الاستقامة[٢].

(اِتَّبِعْ) الكتاب والسنة علىٰ فهم سلف الأمة.

(وَلَا تَبْتَدِعْ) لا تحدث رأيـًا وعبادة مخالفـًا للكتاب والسنة.

وقد سبق تعريف البدعة والكلام عليها في شرح كتاب ابن وضاح، فراجعه إن شئت.

وقوله: (واتباع الأمراء) أي: لزوم جماعة المسلمين وأمرائهم، فإن يد الله تعالىٰ مع الجماعة.

وعلامة أهل البدع مفارقة الجماعة والخروج علىٰ ولاة الأمر – لا سيما الظلمة – لأنهم يجدون علىٰ ذلك أنصاراً من سقط الناس ورعاعهم.



(١) حسن. أخرجه ابن نصر (٧١)، والدارمي (١٤١)، وغيرهما، ولفظه عند ابن نصر: «عليكم بالاستقامة واتباع الأمراء والأثر، وإياكم والتبدع».

(٢) "المدارج" (٢/ ٣٣٦ وما بعدها) ط. طيبة.

٢- بَابٌ فِي الْإِيمَانِ بِصِفَاتِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ

وَاعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ بِاللهِ وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ أَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ يَرَوْنَ الْجَهْلَ بِمَا لَمْ يُخْبِرْ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ نَفْسِهِ عِلْمًا، وَالْعَجْزَ عَمَّا لَمْ يُدَّعَ إِيمَانًا، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَنْتَهُونَ مِنْ وَصْفِهِ بِصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ إِلَىٰ حَيْثُ اِنْتَهَىٰ فِي كِتَابِهِ، وَعَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ، وَقَدْ قَالَ – وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، وَقَالَ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨]، وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]، وقال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه:٣٩]، وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، وقال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

الشرح

الباب في: بيان معتقد أهل السنة في أسماء الله تعالىٰ وصفاته.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ، من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيِّفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سميَّ له، ولا كفؤ له،

ولا ند له(١).

وأهل السنة مجمعون علىٰ هذا: إثبات للصفات والأسماء الحسنىٰ بلا تمثيل، وينفون عنه مماثلة الخلق بلا تعطيل، ومعاني الصفات معلومة، وكيفيتها لنا مجهولة؛ لأن الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات(٢).

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله تعالىٰ: أهل السنة مجمعون علىٰ الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها وحملها علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز، إلا أنهم لا يكيِّفون شيئًا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة.

وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج؛ فكلهم ينكرها، ولا يحمل شيئًا منها علىٰ الحقيقة، ويزعمون أن من أقرَّ بها مشبِّه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود. والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله، وهم أئمة الجماعة، والحمد لله(٣).

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالىٰ: فالأشاعرة مثلاً والماتريدية لا يعتبرون من أهل السنة والجماعة في هذا الباب؛ لأنهم مخالفون لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في إجراء صفات الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ حقيقتها. اهـ(٤).

فتبين من هذا أن أهل البدع منهم المعطلة: وهم الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، ونحوهم، ومنهم الممثلة: أتباع مقاتل بن سليمان الذين يمثلون الله تعالىٰ بخلقه.

---

(١) "الواسطية".

(٢) وانظر "التمهيد" (٧/ ١٤٥)، "مختصر الصواعق" (ص ٢١٢)، "الفتاوىٰ" (١١/ ٢٥٠)، (٦/ ٣٩٩).

(٣) "التمهيد" (٧/ ١٤٥).

(٤) "شرح الواسطية".

* قاعدة في الرد علىٰ المبتدعة والمعطلة والممثلة:

والقاعدة العامة فيما نرد به عليهم أن نقول: إن قولهم خلاف ظاهر النصوص، وخلاف طريقة السلف، وليس عليه دليل صحيح، وربما يكون في بعض الصفات وجه رابع فأكثر(١).

قوله: (أَهْلَ ٱلْعِلْمِ بِٱللَّهِ ...) العلم بالله تعالىٰ وبما جاءت به رسله نوعان:

أحدهما: العلم بالله تعالىٰ نفسه، أي: بما هو متصف به من نعوت الجلال والإكرام، وما دلت عليه أسماؤه الحسنىٰ.

ومعرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول، وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله تعالىٰ لا محالة.

الثاني: يراد بالعلم بالله تعالىٰ العلم بالأحكام الشرعية من الأوامر والنواهي والحلال والحرام(٢).

قوله: (يَرَوْنَ ٱلْجَهْلَ بِمَا لَمْ يُخْبِرْ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ نَفْسِهِ عِلْمًا ...) العلم ما سبق ذكره، وأما ما لم يرد ذكره في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، فإن العلم عدم الخوض فيها، فإن المتكلم فيها يقول علىٰ الله تعالىٰ بغير علم، والساكت عنها ساكت بعلم، كما أمره الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

وهذا كقول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ: «قف حيث وقف القوم؛ فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذٍ كفُّوا...».

---

(١) "شرح لمعة الاعتقاد" للعثيمين (ص٨)، وانظر لهذا الباب الكتاب القيم "القواعد المثلىٰ في أسماء الله وصفاته الحسنىٰ" للإمام ابن عثيمين رحمه الله تعالىٰ.

(٢) انظر "الفتاوىٰ" (٣/ ٣٣٣)، (٥/ ٦)، "مفتاح دار السعادة" (١/ ١٥٤).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالىٰ: لأنهم وقفوا عن علم وبصيرة، ولو كان فيما حدث بعدهم خير لكانوا به أحرىٰ(١).

وأما ما يطلق علىٰ الله تعالىٰ مما لا دليل عليه؛ فيتوقف في لفظه، وينظر في معناه، فإن كان موافقًا لما ثبت فذاك، وإن كان مخالفًا رُد علىٰ قائله(٢).

قوله: (إِنَّمَا يَنْتَهُونَ مِنْ وَصْفِهِ ... وَعَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ) قال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، فأوجب الاتباع ونهىٰ عن القول بلا علم؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالىٰ من الأسماء والصفات كما ينبغي(٣).

قوله: (وَقَدْ قَالَ - وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ -: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]) شرع المصنف في إثبات الصفات، وذكر بعضها، فمن ذلك:

الوجه: الوجه ثابت لله تعالىٰ بدلالة الكتاب والسنة والإجماع، وهو وجه حقيقي يليق بالله تعالىٰ.

قوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً...﴾ [الأنعام:١٩] فيها اسم الله تعالىٰ: الشهيد، وفيه: إثبات صفة الشهادة، ومعنىٰ الشهيد: المطلع علىٰ الخلق العالم بالسرائر.

---

(١) "شرح اللمعة" (ص ٢٢).

(٢) انظر "التمهيد" (٧/ ١٤٦-١٤٧)، و"جامع شروح الطحاوية" (١/ ٤٢٨ وما بعده).

(٣) انظر "القواعد المثلىٰ" (ص ١١٨)، مع "المحلىٰ" ط. دار ابن حزم.

قوله: (﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]) فيها إثبات صفة النفس لله عز وجل، وهي ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف كما يليق بجلال الرب سبحانه، والمراد بنفسه سبحانه ذاته، كما هو مذهب جمهور العلماء.

قوله: (﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]) فيها إثبات صفة الخلق، وذلك أن الله تعالىٰ خلق آدم بيديه، كما يليق بجلاله سبحانه.

* فائدة: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالىٰ: طريق إثبات الصفات ثلاثة أوجه:

الأول: التصريح بالصفة، كالعزَّة والقوة ...

الثاني: تضمن الاسم لها مثل: الغفور متضمن للمغفرة، لكل اسم متضمن صفة ...

الثالث: التصريح بالفعل دال علىٰ الوصف، كالاستواء والنزول إلىٰ السماء الدنيا[(١)].

وأما الروح فإضافتها إلىٰ الله تعالىٰ من باب إضافة المخلوق إلىٰ الخالق؛ كقولك: كعبة الله، عبد الله.

قوله: (﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، وقال: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:٣٩]) فيها إثبات صفة العين لله تعالىٰ كما يليق بجلاله سبحانه، وجاء ذكرها في القرآن بلفظ الإفراد والجمع، وقد دل الحديث الصحيح أن لله تعالىٰ عينين.

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال في وصف الدجال: «إنه أعور العين اليمنىٰ، وإن ربكم ليس بأعور»[(٢)].

ولا يقال (أعور) إلا لمن فقد إحدىٰ عينيه، كما هو حال الدجال، أما ربنا عز وجل فله عينان

(١) "القواعد المثلىٰ" (ص ٢١١-٢١٢) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٥٧، ٧٤٠٧)، ومسلم (١٦٩).

كما يليق بجلاله، وأجمع السلف علىٰ ذلك(١).

قوله: (﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]).

قوله: (﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]) هذه الأدلة فيها إثبات صفة اليدين لربنا جل وعلا، كما يليق بجلاله، وهي ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن لله يدين بدون زيادة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: ورد لفظ اليد في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع متصرفًا ومقرونًا بما يدل علىٰ أنها يد حقيقية من الإمساك والطي والقبض والبسط والخلق باليدين ...

فقطع بالضرورة أن المراد يد الذات لا يد القدرة والنعمة، فإن السياق والتركيب لا يحتمله البتة ... اهـ(٢).

وكلتا يدي ربي يمين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١]؛ لما جاء في الحديث الصحيح عند مسلم عن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «وكلتا يدي ربي يمين»(٣).

قوله: (﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]) فيها إثبات صفتي السمع والرؤية لله تعالىٰ كما يليق بجلاله، وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ [الحج:٧٥].

---

(١) انظر "التوحيد" لابن خزيمة (ص ٩٦)، "شرح الواسطية" للعثيمين (١/ ٣١٣-٣١٤)، "الجواب الصحيح" (٤/ ١٣)، "الصواعق المرسلة" (١/ ٢٥٧-٣٥٩).

(٢) "مختصر الصواعق" (ص ٣٣٤).

(٣) (١٨٢٧).

وهي من الصفات الثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف[١].

قوله تعالىٰ: (﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء:١٦٤]) فيها إثبات صفة الكلام لله عز وجل كما يليق بجلاله، وهي صفة ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف.

وكلام الله تعالىٰ بحرف وصوت، يتكلم متىٰ شاء وكيف شاء.

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالىٰ: فأهل السنة كلهم من السلف والخلف متفقون علىٰ أن كلام الله غير مخلوق[٢].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: إن سلف الأمة وأئمتها ... يصفون الله بما وصف به نفسه من التكلم والمناجاة والمناداة ... اهـ[٣].

وقوله تعالىٰ في الآية: ﴿تَكۡلِيمٗا ﴾ مصدر مؤكد، والمصدر المؤكد يؤتىٰ به لنفي احتمال المجاز؛ فدل علىٰ أنه كلام حقيقي كما يليق بجلال الله تعالىٰ[٤].

قوله تعالىٰ: (﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور:٣٥]) فيه إثبات صفة النور لله عز وجل، ومعنىٰ ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: منورهما. وذهب كثير من العلماء إلىٰ أن النور من أسمائه سبحانه.

---

(١) انظر "الفتاوىٰ" (٦/ ٦٨)، (٣/ ٤٦)، """الفتاوىٰ" (٦/ ٢٢٨)، شرح الواسطية" للعثيمين (١/ ٢٩١-٣٠١)، و(١/ ٣٢٢-٣٣٠).

(٢) شرح الطحاوية (١٧٦).

(٣) (٦/ ٥١٨)، (١٢/ ١٧٣).

(٤) انظر "الواسطية" (١/ ٤١٨-٤٢٥)، "شرح اللمعة" (٤٠-٤٣)، "مختصر التوحيد" (١٥٤-١٧١).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: والنور يُضاف إليه سبحانه علىٰ أحد وجهين: إضافة صفة إلىٰ موصوفها؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر:٦٩]، وإضافة مفعول إلىٰ فاعله ... اهـ بتصرف[(١)].

قوله تعالىٰ: (﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]) فيها إثبات أسماء الله تعالىٰ: الله، الإله، الحي، القيوم، والصفات المشتقة منها، ونفي النوم والسِّنة – وهي النعاس – عن الله عز وجل؛ لكمال حياته وقيوميته، فكل نفي لنقصٍ في حق الله تعالىٰ متضمن لإثبات كمال ضده.

وذهب بعض العلماء إلىٰ أن اسم الله الأعظم هو (الحي القيوم).

وأكثر العلماء علىٰ أن لفظ الجلالة (الله) كما رجحه ابن القيم وغيره[(٢)].

قوله سبحانه: (﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد:٣]) فيه إثبات هذه الأسماء مع صفاتها المشتقة منها، وقد جاء تفسيرها في قول النبي ﷺ: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[(٣)]. وقد شرحها المؤلف.

****

(١) "اجتماع الجيوش الإسلامية" (ص ٤٥) ط. الرشد. وانظر "صفات الله عز وجل" للسقاف (ص ٢٦٠-٢٦١) ط. دار الهجرة. و"فقه الأسماء الحسنىٰ" للعباد (ص ٢٦٦-٢٦٨)، "الفتاوىٰ" (٦/ ٣٩٢/ ٣٧٤) وغيرها.

(٢) انظر "الفتاوىٰ" (٣/ ٣٦)، (٩/ ٤١١)، (١٨/ ٣١١)، "شرح الواسطية" للعثيمين (١/ ١٦٥-١٦٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَمِثْلُ هَذَا فِي اَلْقُرْآنِ كَثِيرٌ فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نُورُ اَلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَهُ وَجْهٌ وَنَفْسٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ كَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَيَسْمَعُ وَيَرَىٰ وَيَتَكَلَّمُ، اَلْأَوَّلُ وَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَالْآخِرُ اَلْبَاقِي إِلَىٰ غَيْرِ نِهَايَةٍ لَا شَيْءَ بَعْدَهُ، وَالظَّاهِرُ اَلْعَالِي فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ وَالْبَاطِنُ بَطَنَ عِلْمُهُ بِخَلْقِهِ تَعَالَىٰ: وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ حَيٌّ قَيُّومٌ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.

الشرح

قوله: (الْبَاطِنُ بَطَنَ عِلْمُهُ بِخَلْقِهِ) هذا التفسير هو الذي علي كثير من السلف.

قال الطبري رحمه الله تعالىٰ: الباطن هو الباطن لجميع الأشياء، فلا شيء أقرب إلىٰ شيء منه، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

وقال السعدي رحمه الله تعالىٰ: والباطن يدل علىٰ اطلاعه علىٰ السرائر والضمائر، والخبايا والخفايا، ودقائق الأشياء، كما يدل علىٰ كمال قربه ودنوه ... اهـ

فتبين أن معنىٰ الباطن كاسم القريب(١).



(١) انظر "تفسير الطبري" (٢٧/ ١٢٤)، "شرح الأسماء الحسنىٰ" للسعدي وغيرها.

(١٥/٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنهما عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ فَقَالَ مُوسَىٰ يَا آدَمُ أَنْتَ أَسْكَنَكَ اَللهُ اَلْجَنَّةَ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ... ثُمَّ ذَكَرَ اَلْحَدِيثَ(١).

الشرح

وحديث أبي سعيد روي مرفوعـًا وموقوفـًا، رفعه أبو معاوية عن الأعمش، وتابعه الفضل بن موسىٰ وغيره، وأوقفه وكيع، والمرفوع أرجح، والموقوف صحيح وله حكم الرفع، كأن الأعمش رواه علىٰ الوجهين(٢).

الشاهد فيه قوله: (أَسْكَنَك، نَفَخَ فِيْكَ) فهذا موافق للآية السابقة: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر:٢٩].

وأما شرح المحاجة بين آدم وموسىٰ؛ فقد أجاب آدم بقوله: «أتلومني علىٰ أمرٍ قد قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فحجَّ آدمُ موسىٰ» أي: غلبه بالحجَّة.

ذهب شيخ الإسلام إلىٰ أن آدم احتج بالقدر علىٰ مصيبة خروجه من الجنة؛ لا علىٰ السبب – أي: الذنب –، وهذا الراجح.

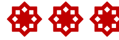
وقيل: بل احتج بالقدر علىٰ الذنب، وهذا كان بعد توبته وعفو الله تعالىٰ عنه ... وهذا رأي ابن القيم(٣).

(١) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٢) انظر "السنة" لابن أبي عاصم (١٤٢)، و"كشف الأستار" (٣/ ٢٢)، وراجع هامش الأصل من هذا الكتاب.

(٣) وانظر "شرح البخاري" للعثيمين (٣/ ١٨٤).

وقوله: (بِأَرْبَعِينَ سَنَةٍ) فسرته رواية لمسلم[1] وفيها: «فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال: بأربعين عامًا ...»، وذكر نحوه، فالتقدير المراد به هنا: كتابته في التوراة، وإلا فالكتابة الأولىٰ كانت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ... اهـ وسيأتي في باب القدر زيادة توضيح.



(١) (٢٦٥٢).

(١٦/٨) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ اَلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا سَمِعَتْ اَلنَّبِيَّ عَلَيْهِ اَلصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ – وَهُوَ سَاجِدٌ –: ... ثُمَّ ذَكَرَ اَلْحَدِيثَ وَفِي آخِرِهِ: «أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

الشرح

الحديث رواه مسلم [(١)] بلفظ: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك».

وفيه إثبات صفات لله تعالىٰ: الرضا، والسخط، والمعافاة، والعقوبة، والإعاذة، والنفس ... وكلها صفات كمال وجلال.

وقوله: (لا أُحْصِي) لا أطيق ولا أبلغ وأحيط بما تستحقه من الثناء علىٰ صفاتك العلا وأسماءك الحسنىٰ، وعلىٰ نعمتك وإحسانك.

وفيه دليل علىٰ أن أسماء الله تعالىٰ وصفاته غير محصورة فيما ورد في الكتاب والسنة، بل منها ما استأثر الله تعالىٰ به في علم الغيب عنده.

وقوله: (أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ) فيه وجوب إثبات ما أثبته الله تعالىٰ ورسوله ﷺ في القرآن والسنة من الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا؛ لأنها ثناء ومدح لله تعالىٰ، والله يحب المدح، وهو جل وعلا أعلم بنفسه من غيره، فوجب إثبات ما أثبته لنفسه.

وفي الحديث بيان عظمة الله تعالىٰ، وعجز الخلق عن أداء الثناء عليه كما ينبغي له، بل هو الذي يثني علىٰ نفس كما ينبغي لجلاله وكماله[(٢)].



(١) (٤٨٦).

(٢) انظر "البحر المحيط الثجاج شرح مسلم" (١١/ ٢١٠-٢١٥).

(١٩/٩) عَنْ اَلنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَبِّكَ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ»[(١)].

(٢٠/١٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اَللهِ ﷺ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ اَلْفَجْرِ وَصَلَاةِ اَلْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ اَلَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[(٢)].

الشرح

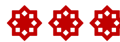
(١٩/٩) الشاهد منه: إثبات الأصابع لله عز وجل، وهي خمس في الأدلة الصحيحة، كما يليق بجلال وعظمة ربنا سبحانه.

وقال البغوي في شرحه للحديث: فيه أن العبد إن اهتدىٰ فبهداية الله إياه، وإن ثبت علىٰ الإيمان فبتثبيته، وإن ضلَّ فبصرفه عن الهدىٰ[(٣)].

(٢٠/١٠) الشاهد منه: (فيسألهم) أي: يكلمهم، ففيه إثبات صفة الكلام لله تعالىٰ، وأنه حرف وصوت مسموع سمعته الملائكة.

وقوله: (ثُمَّ يَعْرُجُ ...) أي: يصعدون إلىٰ الله تعالىٰ، ففيه إثبات صفة العلو لله تعالىٰ.

وقوله: (وَهُوَ أَعْلَمُ) فيه إثبات صفة العلم لله سبحانه.



(١) صحيح لغيره. أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢)، والبغوي (١/ رقم ٨٩) وغيرهما، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٣) (١/ ص ١٦٧) من كتاب "شرح السنة".

(٢١/١١) عَنْ أَبِي مُوسَىٰ ﵁ قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ مَعَ اَلنَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا أَهْبَطَ اَلنَّاسُ كَبَّرُوا، وَإِذَا عَلَوْا كَبَّرُوا، فَقَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «أَيُّهَا اَلنَّاسُ ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا»(١).

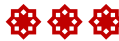
(٢٢/١٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ فَأَتَىٰ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا اَلْإِيمَانُ؟ ... ثُمَّ ذَكَرَ اَلْحَدِيثَ وَفِيهِ: قَالَ: يَا رَسُولَ اَللهِ مَا اَلْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اَللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٢).

الشرح

(١١/ ٢١) **قوله:** (كَبَّرُوا) وفي رواية: «رفعنا أصواتنا بالتكبير».

وقوله: (اِرْبَعُوا) أي: ارفُقوا – بضم الفاء – والشاهد من الحديث قوله: «لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا»، فنفىٰ صفات النقص عن الله عز وجل، وهذا النفي متضمن لإثبات كمال ضده، وهو السمع والبصر، ولذلك بوَّب عليه البخاري في كتاب الوحيد: باب: (وكان الله سميعًا بصيراً)، وعبَّر في الحديث بالغائب ولم يعبر بالأعمىٰ مع أنه أظهر في المناسبة، لكنه لما كان الغائب كالأعمىٰ في عدم الرؤية نفىٰ لازمه ليكون أبلغ وأشمل(٣).

(١٢/ ٢٢) الشاهد منه قوله: (يراك) إثبات صفة الرؤية لله عز وجل.



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٠٧٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٣) "الفتح" (١٣/ ٤٥٨).

(١٣/ ٤٣) عَنْ اِبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اَللهِ ﷺ ذَكَرَ اَلْمَسِيحَ بَيْنَ ظَهْرَانَي اَلنَّاسِ فَقَالَ: «إِنَّ اَللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّ اَلْمَسِيحَ اَلدَّجَّالَ أَعْوَرُ اَلْعَيْنِ اَلْيُمْنَىٰ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»(١).

قَالَ مُحَمَّدٌ: فَهَذِهِ صِفَاتُ رَبِّنَا اَلَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَوَصَفَهُ بِهَا نَبِيُّهُ ﷺ، وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا تَحْدِيدٌ وَلَا تَشْبِيهٌ وَلَا تَقْدِيرٌ فَسُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ. لَمْ تَرَهُ اَلْعُيُونُ فَتَحُدَّهُ كَيْفَ هُوَ كَيْنُونِيَّتُهُ، لَكِنْ رَأَتْهُ اَلْقُلُوبُ فِي حَقَائِقِ اَلْإِيمَانِ بِهِ.

الشرح

الشاهد منه كما سبق عند شرح الآيات.

قوله: (لَيْسَ بِأَعْوَرَ ...) فإنه يفيد أن لله تعالىٰ عينين كما يليق بجلاله، وهذا نفي يفيد كمال ضده، وهو عدم العور، أي: ثبوت العينين.

قوله: (تَحْدِيدٌ) الحد من الألفاظ المجملة التي لا تثبت ولا تنفىٰ إلا بعد معرفة معناها، ومراد المؤلف هنا: لا يحيطون بصفات الباري سبحانه، وهذا حقٌّ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠](٢).

وقوله: (وَلَا تَشْبِيهٌ) يعني: ولا تمثيل.

وقوله: (وَلَا تَقْدِيرٌ) أي: ولا تكييف.

وقوله: (كَيْنُونِيَّتُهُ) أي: كيف ذاته وصفاته(٣).



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٧)، ومسلم (٢٢٤٧).

(٢) انظر "معجم ألفاظ العقيدة" (ص ١٣٧)، "جامع شروح الطحاوية" (١/ ٤٢٨).

(٣) انظر "شرح الواسطية" للعثيمين (١/ ٨٦-١٠٥).

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَقَالَ اللهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

فَأَسْمَاءُ رَبِّنَا وَصِفَاتُهُ قَائِمَةٌ فِي اَلتَّنْزِيلِ، مَحْفُوظَةٌ عَنْ اَلرَّسُولِ ﷺ، وَهِيَ كُلُّهَا غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، وَلَا مُسْتَحْدَثَةٍ، فَتَعَالَى اَللهُ عَمَّا يَقُولُ اَلْمُلْحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

الشرح

قوله: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ جمع اسم، مشتق من السمو. ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ جمع الأحسن، أي: البالغة في الحسن أكمله، المتضمنة صفات كمال(١).

قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴾ وهذا يشمل: دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

فدعاء المسألة: أن يكون الدعاء موافقًا لمعنى الاسم، كقولك: يا رحيم ارحمني، يا عزيز أعزَّني بطاعتك، يا تواب تب عليَّ، يا قوي انصرني ... إلخ.

ودعاء العبادة: أن تتعبَّد بمقتضى هذه الأسماء، فتقوم بالتوبة إليه سبحانه؛ لأنه التواب، وتخشاه في السر والعلن؛ لأنه العليم اللطيف الخبير، وتتوكل عليه؛ لأنه الوكيل القيوم المولى ... وهكذا(٢).

قوله: (فَأَسْمَاءُ رَبِّنَا ... مَحْفُوظَةٌ عَنْ اَلرَّسُولِ ﷺ) أي: أسماء الله تعالى توقيفية.

كما سبق شرحه في الباب الثاني، وراجع (القواعد المثلى) القاعدة الخامسة للأسماء.

قوله: (وَهِيَ كُلُّهَا غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ) وتقرير هذا الأصل من وجوه:

الوجه الأول: أن أسماءه وصفاته تابعة لذاته، فكما أن ذاته أزليَّة غير مخلوقة فكذلك أسماؤه وصفاته.

---

(١) انظر "تفسير القرطبي" (١/ ١٠٠)، "جلاء الأفهام" (ص ٣١)، "شرح القواعد المثلى" للعثيمين (ص ٤٧-٤٨).

(٢) انظر "مقدمة القواعد المثلى"، "الفتاوى" (١/ ٢٣٧)، "بدائع الفوائد" (٣/ ٢).

الوجه الثاني: أن أسماء الله تعالىٰ وصفاته الواردة في الكتاب والسنة من كلامه، وكلامه تعالىٰ غير مخلوق، فأسماؤه وصفاته غير مخلوقة.

الوجه الثالث: اتفاق الأمة علىٰ أن من حلف باسم من أسماء الله أو صفة من صفاته أنه حالف بالله تعالىٰ.

الوجه الرابع: ما قرره الفقهاء من أن اليمين المكفِّرة هي ما حُلف فيه بالله تعالىٰ أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته، ولو كانت الأسماء والصفات مخلوقة لما جاز الحلف بها؛ لأن الحلف بغير الله تعالىٰ شرك بالله تعالىٰ(١).

قوله: (وَلَا مُسْتَحْدَثَةٍ) هذا كقول الطحاوي رحمه الله تعالىٰ في عقيدته: (ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري ...)، فأسماء الله عز وجل أوليَّة، وكذلك صفاته؛ لأنها قائمة بذاته سبحانه، وهو الأول فليس شيء قبله، وكذلك أسماؤه وصفاته(٢).

قوله: (اَلْمُلْحِدُونَ) الإلحاد لغة: الميل، والإلحاد في أسماء الله تعالىٰ وصفاته أنواع:

١- أن ينكر شيئًا منها أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام، وهذا هو التعطيل.

٢- أن يمثلها بصفات المخلوقين كما فعلت الممثلة.

٣- أن يسمي أو يصف الرب سبحانه بما لم يرد في الكتاب والسنة، أو بما فيه نقص(٣).

****

(١) انظر "القواعد الكلية" للبريكان (ص ١٤١-١٤٢)، فقد ذكر ثلاثة عشر وجهًا.

(٢) انظر "جامع شروح الطحاوية" (١/ ١٦٢)، (١٧٢ وما بعدها).

(٣) انظر "القواعد المثلىٰ" القاعدة السابعة للأسماء.

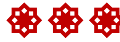
(١٤/ ٢٧) عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «إِنَّ اَلشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ اَلسَّمَاءَ؟ فَيَقُولُ: اَللهُ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ اَلْأَرْضَ؟ فَيَقُولُ اَللهُ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ اَللهَ؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاَللهِ وَرَسُولِهِ ثَلَاثًا»[(١)].

الشرح

الشاهد منه: (فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاَللهِ وَرَسُولِهِ) أي: لينته ولا يسترسل في ذلك؛ لأنه يؤدي إلىٰ التعطيل أو التمثيل.

وفي رواية: «فليستعذ بالله ولينته» معناه: إذا عرض له هذا الوسواس فليلجأ إلىٰ الله تعالىٰ في دفع شره، وليعرض عن الفكر في ذلك.

وليعلم أن هذا الخاطر من وسوسة الشيطان، وليبادر إلىٰ قطعها بالاشتغال بغيرها[(٢)].



(١) مرسل. وهو في "الصحيحين" عن عروة عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤) نحوه دون قوله: «ثلاثًا» وفيها: «رسله»، وزاد مسلم: «فليستعذ بالله ولينته».

(٢) "شرح مسلم" (٢/ ١٣١-١٣٣) ط. الكتب العلمية.

٣- باب فِي الْإِيمَانِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنَّ اَلْقُرْآنَ كَلَامُ اَللهِ وَتَنْزِيلُهُ، لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا مَخْلُوقٍ، مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

الشرح

هذا من أهم الأبواب، لا يكاد يخلو منه كتاب في العقيدة؛ لما حصل فيه من المجنة زمن المأمون وغيره، وأحسن الكتب فيه السنة لعبد الله بن أحمد، ومن الكتب المتأخرة: "العقيدة السلفية في كلام رب البرية".

قوله: (وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ) أي: من عقيدتهم.

قوله: (أَنَّ اَلْقُرْآنَ كَلَامُ اَللهِ) وكلام الله تعالىٰ من صفاته، وصفاته تعالىٰ غير مخلوقة كما سبق قريبًا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦][(١)].

قوله: (وَتَنْزِيلُهُ) قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة:٧٧] إلىٰ قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة:٨٠].

قوله: (لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا مَخْلُوقٍ) المشهور من كلام السلف قولهم: كلام الله تعالىٰ غير مخلوق[(٢)].

وقوله: (لَيْسَ بِخَالِقٍ) كان المبتدعة يقولون: القرآن مخلوق، فرد عليهم السلف وقالوا:

---

(١) "الفتاوىٰ" (٦/ ٥١٨).

(٢) انظر "العقيدة السلفية في كلام رب البرية" (ص ١٢١-١٤٧).

ليس بمخلوق، فقالوا: هو خالق أو مخلوق، فقيل: لا خالق ولا مخلوق(١).

قوله: (مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ) منه بدأ؛ لأنه سبحانه المتكلم به، المتصف به، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل:٦]، وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ [السجدة:١-٣].

وأما عود كلامه تعالىٰ إليه فمعناه: يُسري عليه في ليلة فيرفع من المصاحف وصدور الحفاظ، فلا تبقىٰ في الأرض منه آية؛ لقوله ﷺ: «يسرىٰ علىٰ كتاب الله ليلاً فيصبح الناس ليس في الأرض ولا جوف مسلم منه آية»(٢).

وفي الباب عن حذيفة وأبي هريرة وابن مسعود وغيرهم(٣).



(١) انظر "صريح السنة" للطبري (ص ٢٥).

(٢) أخرجه المقدسي في "اختصاص القرآن" (٦٤).

(٣) انظر "العقيدة السلفية" (ص ١٩٣-٢٠٢).

(١٥/ ٣٠) عَنْ عَبَّادٍ قَالَ: كَانَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكْتُهُ مِنَ الْمَشَايِخِ: مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، وَفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ، وَعِيسَىٰ بْنُ يُونُسَ، وعَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، وَوَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ أَدْرَكْتُ مِنْ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ: مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَغَيْرِهَا يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا مَخْلُوقٍ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمٌ حَتَّىٰ يَعْلَمَ وَيُؤْمِنَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا مَخْلُوقٍ.

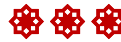
قَالَ ابْنُ وَضَّاحٍ: وَلَا يَسَعُ أَحَدًا أَنْ يَقُولَ: كَلَامُ اللهِ قَطُّ حَتَّىٰ يَقُولَ: لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا مَخْلُوقٍ وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمٌ حَتَّىٰ يَعْلَمَ وَيُوقِنَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا مَخْلُوقٍ، مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَمَنْ قَالَ بِغَيْرِ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ الْعَظِيمِ(١).

الشرح

(كَانَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكْتُهُ مِنَ الْمَشَايِخِ) وهذا إجماع.

(كَلَامُ اللهِ قَطُّ) أي: يسكت دون زيادة.

وقوله: (وَمَنْ قَالَ بِغَيْرِ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ الْعَظِيمِ) جمهور السلف علىٰ تكفير من قال: القرآن مخلوق، ونقل بعض العلماء الإجماع.



---

(١) حسن. وابن وضاح أقل أحواله أنه حسن الحديث.

٤- باب فِي اَلْإِيمَانِ بِالْعَرْشِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنَّ اَللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ اَلْعَرْشَ وَاخْتَصَّهُ بِالْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ فَوْقَ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، ثُمَّ اِسْتَوَىٰ عَلَيْهِ كَيْفَ شَاءَ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن:٥-٦].

وفي قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد:٤]، فَسُبْحَانَ مَنْ بَعُدَ فَلَا يُرَىٰ، وَقَرُبَ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ فَسَمِعَ اَلنَّجْوَىٰ.

الشرح

العرش لغة: سرير الملك ....، وتطلق علىٰ غير ذلك.

وشرعـًا: قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: هو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة علىٰ العالم، وهو سقف المخلوقات[(١)].

والعرش أعظم المخلوقات، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وهو أعلىٰ المخلوقات، وأولها علىٰ قول الجمهور، وأقربها إلىٰ الله تعالىٰ[(٢)].

قوله: (فَوْقَ جَمِيعِ مَا خَلَقَ) قال ﷺ: «لما قضىٰ الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»[(٣)].

فصرح أن العرش أقرب المخلوقات إليه، وأيضـًا دلت الآية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: ارتفع عليه؛ لأنه أعلىٰ المخلوقات.

---

(١) "البداية والنهاية" (١/ ١٢).

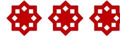
(٢) انظر "كتاب العرش" لابن أبي شيبة، و"كتاب العرش" للذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (كَيْفَ شَاءَ) الاستواء وغيره من أفعاله سبحانه، يفعلها متىٰ شاء، وكيف شاء، والاستواء: الارتفاع، وهو سبحانه في علوِّه قبل استوائه علىٰ عرشه وبعد ذلك.

و**قوله:** (فَسُبْحَانَ مَنْ بَعُدَ فَلَا يُرَىٰ) أي: في الدنيا لا يُرىٰ، كما قال لموسىٰ عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، أي: في الدنيا.

قوله: (وَقَرُبَ بِعِلْمِهِ) القرب هنا بمعنىٰ المعية، ويأتي القرب بمعنىٰ الدنو، وسنبسط القول عليه في الباب السابع إن شاء الله تعالىٰ.



(١٦/ ٣٤) عَنْ ابْنِ اَلْمُنْكَدِرِ أَنَّ رَسُولَ اَللهِ ﷺ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ اَلْعَرْشِ، بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ مَخْفِقُ اَلطَّيْرِ سَبْعَمِائَةِ عَامٍ»[١].

الشرح

(أُذِنَ) أي: أَذِن الله (لِي أَنْ أُحَدِّثَ) الناس (عَنْ مَلَكٍ) عظيم الخلقة. (مِنْ حَمَلَةِ اَلْعَرْشِ) وهذا هو الشاهد للباب. (بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ ...) هذا يدل علىٰ عظمة هذا الملك، ويدل علىٰ أن العرش عظيم ومجيد، ومحمول علىٰ أعناق الملائكة[٢].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، فمحمول علىٰ أن الماء هذا تحت الملائكة، أو كان هذا قبل خلق السموات والأرض، والله أعلم.



(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧) عن ابن المنكدر، عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الشيخان.

(٢) انظر "عون المعبود" (١٣/ ٣٦).

٥- باب فِي الْإِيمَانِ بِالْكُرْسِيِّ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنَّ اَلْكُرْسِيَّ بَيْنَ يَدَيْ اَلْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَوْضِعُ اَلْقَدَمَيْنِ.

(١٧/ ٣٧) عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «إِنَّ اَلْكُرْسِيَّ اَلَّذِي وَسِعَ اَلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مَوْضِعُ اَلْقَدَمَيْنِ، وَلَا يَعْلَمُ قَدْرَ اَلْعَرْشِ إِلَّا اَلَّذِي خَلَقَهُ»(١)

(١٨/ ٣٩) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا بَيْنَ سَمَاءِ اَلدُّنْيَا وَاَلَّتِي يَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ اَلسَّمَاءِ اَلسَّابِعَةِ وَبَيْنَ اَلْكُرْسِيِّ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ اَلْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ اَلْمَاءِ، وَاَللهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»(٢).

الشرح

(١٧/ ٣٧) الكرسي غير العرش عند عامة السلف، والكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

(١٨/ ٣٩) وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع السلف ...(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٨٢)، وابن خزيمة (١٠٧-١٠٨)، وغيرهما، وسنده حسن – وسند المؤلف ضعيف – وحسنه الألباني في "العلو" (١٢٤).

(٢) أخرجه البيهقي في "الأسماء والصفات" (٨٥١) وغيره، وصححه ابن القيم في "اجتماع الجيوش الإسلامية" (ص ١٠٠)، وقد جاء مرفوعًا ولا يصح، انظر "حاشية اللمعة" (ص ٣٧).

(٣) (٦/ ٥٨٤).

وقال ابن أبي العز رحمه الله تعالىٰ: وإنما الكرسي كما قال غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه[(١)].

* **فائدة**: ما جاء عن الحسن أن الكرسي هو العرش لم يصح[(٢)].



(١) "الطحاوية" (ص ٣١٣)، وانظر "كتاب العرش" (١/ ٣٠٣-٣١٠).

(٢) "البداية والنهاية" (١/ ١٣).

٦- باب الْإِيمَانِ بِالْحُجُبِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، مُحْتَجِبٌ عَنْهُمْ بِالْحُجُبِ، فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥].

الشرح

قال الدارمي رحمه الله تعالىٰ – بعد ذكر أدلة الحجاب – : من يقدِّر قدر هذه الحجب التي احتجب الجبار بها؟! ومن يعلم كيف هي غير الذي أحاط بكل شيء علماً؟ ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨]؟! ففي هذا أيضاً دليل علىٰ أنه سبحانه بائن من خلقه محتجب عنهم[1].



(١) "الرد علىٰ الجهمية" (ص ٧٣) ط. ابن الأثير.

(١٩/ ٤٢) عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ اِبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «اِحْتَجَبَ اَللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ بِأَرْبَعٍ: نَارٍ، وَظُلْمَةٍ، وَنُورٍ، وَظُلْمَةٍ»(١).

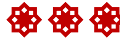
(٢٠/ ٤٣) عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: «بَيْنَ اَلْمَلَائِكَةِ وَبَيْنَ اَلْعَرْشِ سَبْعُونَ حِجَابًا مِنْ نَارٍ، وَسَبْعُونَ حِجَابًا مِنْ ظُلْمَةٍ، وَحِجَابٌ مِنْ نُورٍ، وَحِجَابٌ مِنْ ظُلْمَةٍ»(٢).

الشرح

وهذه الآثار لا نعلم عليها أدلة صحيحة من الكتاب والسنة.

والثابت عن النبي ﷺ قوله: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»(٣)، وفي لفظ: «حجابه النار – أو النور –» بالشك، وذكر النار مرجوح.

والنور صفة من صفات الله تعالىٰ كما سبق بيانه قبل، في شرح الباب رقم (٢).



---

(١) صحيح. أخرجه أبو سعيد الدارمي في "الرد علىٰ الجهمية" (١١٨)، واللالكائي (٧٢٩) وغيرهما، وهي تشبه الاسرائيليات، وكذا الذي بعده.

(٢) حسن. أخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" (٣٤)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٨٥٦) وغيرهما..

(٣) مسلم (١٧٩) عن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- باب فِي الْإِيمَانِ بِالنُّزُولِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ إِلَىٰ سَمَاءِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَيُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحُدُّوا فِيهِ حَدًّا.

الشرح

صفة النزول لله تعالىٰ ثابتة في السنة في أكثر من عشرين حديثًا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: قد استفاضت به السنة عن النبي ﷺ، واتفق سلف الأمة وأئمتها وأهل العلم بالسنة والحديث علىٰ تصديق ذلك وتلقيه بالقبول(١).

نزول الله تعالىٰ كما يليق بجلاله، نؤمن بذلك من غير تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف.

قال الإمام الآجري رحمه الله تعالىٰ: والإيمان بهذا واجب، ولا يسع المسلم العاقل أن يقول: كيف ينزل؟ ولا يرد هذا إلا المعتزلة(٢).

وقوله: (مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحُدُّوا فِيهِ حَدًّا) يعني: من غير أن يكيفوا صفة النزول، بل يقولون: ينزل كيف شاء.

وصفة النزول من الصفات الفعلية التي يفعلها سبحانه متىٰ شاء وكيف شاء، فنؤمن بعلوِّه سبحانه ونزوله، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].



---

(١) "شرح حديث النزول" (ص ١٤٧).

(٢) "الشريعة" (ص ٣٠٦).

(٢١/ ٤٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[١].

(٢٢/ ٤٦) وفي رواية: «حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ».

الشرح

اتفقت الأحاديث علىٰ دوام النزول الإلهي إلىٰ طلوع الفجر.

وورد في الأدلة علىٰ ثلاث روايات:

الثلث الأخير – وهو أشهرها وأصحها.

والثلث الأول.

ونصف الليل.

وهذان محمولان علىٰ تنوع النزول الإلهي.

وهذا جمع حسن بين الأدلة، وقيل: إنما يكون في الثلث الأخير فقط، وقيل غير ذلك[٢].



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٥٤)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) انظر كتاب "صفة النزول الإلهي" (ص ١٥٧-١٦٧) ط. دار السلام.

وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ عَبَّادٍ: كُلُّ مَنْ أَدْرَكْتُهُ مِنْ اَلْمَشَايِخِ: مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَسُفْيَانُ، وَفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ، وَعِيسَىٰ، وابْنُ اَلْمُبَارَكِ، وَوَكِيعُ ... كَانُوا يَقُولُونَ: اَلنُّزُولُ حَقٌّ.

وَقَالَ اِبْنُ وَضَّاحٍ: وَسَأَلْتُ يُوسُفَ بْنَ عَدِيٍّ عَنْ اَلنُّزُولِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ: أُقِرُّ بِهِ وَلَا أُحُدُّ حَدًّا، وَسَأَلْتُ عَنْهُ اِبْنَ مَعِينٍ فَقَالَ: نَعَمْ، أُقِرُّ بِهِ وَلَا أُحُدُّ فِيهِ حَدًّا(١).

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَهَذَا اَلْحَدِيثُ بَيَّنَ أَنَّ اَللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ عَرْشِهِ فِي اَلسَّمَاءِ دُونَ اَلْأَرْضِ، وَهُوَ أَيْضًا بَيِّنٌ فِي كِتَابِ اَللهِ، وَفِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ عَنْ رَسُولِ اَللهِ ﷺ، قَالَ اَللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة:٥]، وَقَالَ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦]، وقال: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ [الملك:١٧]، وقال: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال لِعِيسَىٰ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥].

الشرح

* اشتمل هذا الكلام علىٰ مسألتين:

الأولىٰ: علو الله سبحانه وتعالىٰ.

والثانية: أن نزول الله تعالىٰ إلىٰ سماء الدنيا لا ينافي علوه، فالله تعالىٰ علىٰ شيء قدير، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، و ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ:١١].

ونزول الله سبحانه نزول حقيقي – أي: ينزل بنفسه سبحانه – وعبر عنه بعضهم بقوله: ينزل بذاته، كما قاله ابن منده وشيخ الإسلام وغيرهم.

---

(١) هذه الآثار حسنة، ومحمد بن وضاح حسن الحديث، وانظر آثاراً كثيرة في الكتاب المذكور آنفًا (ص ٢٢٣-٢٧٥).

وأنكره جماعة؛ لأن لفظ (ذاته) بمعنىٰ (نفسه) لم يرد في الأدلة بهذا المعنىٰ.

والخلاصة: أن من قال (بذاته) وأراد (نفسه سبحانه) فلا حرج، والله أعلم(١).

ويصح التعبير بقولنا: (نزول حقيقي كما يليق بجلاله) فإن قال المبتدع: ينزل بعلمه.

فهذا تحريف لظاهر الأدلة، بل نزوله سبحانه حقيقة كما يليق بجلاله، والله أعلم.

* وقد تكلم السلف: هل يخلو العرش منه سبحانه عند النزول؟

وفيه أقوال ثلاثة: عدم الخوض في ذلك بنفي أو إثبات، مع الإيمان أنه تعالىٰ في العلو.

وقول آخر: يخلو منه العرش، وهو قول باطل، وثالثها: لا يخلو منه العرش.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: وجمهورهم – أي: أهل الحديث – علىٰ أنه لا يخلو منه العرش، وهذا المأثور عن الأئمة المعروفين بالسنة، ولم ينقل عن أحد منهم بإسناد صحيح ولا ضعيف أن العرش يخلو منه(٢).

وهذا وارد عن الإمام أحمد وابن راهويه ونعيم بن حماد ... وغيرهم.

وهذه المسألة كمسألة القرب، فهو سبحانه قريب من خلقه وهو فوق عرشه(٣).

وأما صفة القرب فصفة النزول الإلهي نوع من أنواع صفة القرب لله جل وعلا، وأهل السنة يثبتون هذه الصفة كسائر الصفات.

قال زكريا الساجي رحمه الله تعالىٰ: القول في السنة التي رأيت عليها أصحابنا أهل الحديث الذين لقيناهم أن الله علىٰ عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء(٤).

---

(١) انظر: "صفة النزول الإلهي" (ص ٢٧٩-٢٨٨).

(٢) "منهاج السنة" (٢/ ٦٣٩).

(٣) انظر "شرح حديث النزول" (ص ١٥٣)، "صفة النزول" (ص ٢٨٩-٣٣١).

(٤) "مختصر العلو" (ص ٢٢٣).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: وأما دنوه نفسه – سبحانه – وتقربه من بعض عباده، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة؛ ونزوله واستواءه علىٰ عرشه، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر، وأول من أنكر ذلك في الإسلام الجهمية ... فالذين يثبتون أنه كلم موسىٰ بمشيئته وقدرته كلامًا قائمًا به هم الذين يقولون: إنه يدنو ويقرب من عباده بنفسه(١).

* وقرب الله تعالىٰ الوارد في النصوص نوعان:

الأول: قربه بعلمه وقدرته وتدبيره، وهذا القرب بمعنىٰ المعيَّة، ولا ينكره إلا شرذمة من المعتزلة والقدرية.

الثاني: قربه بنفسه من مخلوقاته متىٰ شاء وكيف شاء ... وهذا ينكره من المبتدعة من ينكر قيام الصفات الاختيارية به تعالىٰ، ويثبته أهل السنة كما سبق، وهذا القرب خاص بمن يقرب منه، وليس منه قربًا عامًا من جميع المخلوقات.

ولا يلزم من القرب والمعيَّة الاختلاط أو الممازجة بين الذاتين.

والفرق بين المعيَّة والقُرْب: القرب مثل الدنو، وهو ضد البعد، وهو يقتضي قرب إحدىٰ الذاتين من الأخرىٰ، ودنوها لغة وشرعًا، بخلاف المعية، فإنها لا تقتضي قرب إحدىٰ الذاتين من الأخرىٰ، وإنما معناها: المصاحبة والمقارنة.

* والمعية نوعان:

– عامة، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] أي: معهم بعلمه وإحاطته.

– وخاصة، مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٨].

(١) "شرح حديث النزول" (ص ٣١٨-٣١٩).

وليس هذا من صرف اللفظ عن ظاهره، بل هذا معنىٰ المعية لغة وشرعـًا.

ونقل ابن عبد البر الإجماع علىٰ هذا(١).



(١) انظر "الفتاوىٰ" (٦/ ٢٣)، "التمهيد" (٧/ ١٣٨-١٣٩)، "شرح حديث النزول" (ص ٣٥٦)، "صفة النزول" (ص ١٩٧-١٩٩).

(٤٧/٤٣) عَنْ عُمَرَ بْنِ اَلْحَكَمِ[١] أَنَّهُ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اَللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اَللهِ، إِنَّ جَارِيَةً لِي كَانَتْ تَرْعَىٰ غَنَمًا لِي فَجِئْتُهَا وَقَدْ فُقِدَتْ شَاةٌ مِنَ اَلْغَنَمِ فَسَأَلْتُهَا عَنْهَا فَقَالَتْ: أَكَلَهَا اَلذِّئْبُ، فَأَسِفْتُ عَلَيْهَا - وَكُنْتُ مِنْ بَنِي آدَمَ - فَلَطَمْتُ وَجْهَهَا، وَعَلَيَّ رَقَبَةٌ أَفَأُعْتِقُهَا؟ قَالَ لَهَا رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «أَيْنَ اَللهُ؟» فَقَالَتْ: فِي اَلسَّمَاءِ. فَقَالَ: مَنْ أَنَا؟ قَالَتْ: رَسُولُ اَللهِ ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «أَعْتِقْهَا».

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَالْحَدِيثُ مِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ جِدًّا فَسُبْحَانَ اَللهِ مَنْ عِلْمُهُ بِمَا فِي اَلْأَرْضِ كَعِلْمِهِ بِمَا فِي اَلسَّمَاءِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْعَظِيمُ.

الشرح

الشاهد منه قوله: («أَيْنَ اَللهُ؟» فَقَالَتْ: فِي اَلسَّمَاءِ).

فهذه الأمة المؤمنة التي سودت وجوه الجهمية بجوابها السديد، أن الله تعالىٰ في السماء، جعل الصادق المصدوق ﷺ ذلك هو الإيمان.

قال عبد الغني المقدسي رحمه الله تعالىٰ: ومن أجهل جهلاً وأسخف عقلاً وأضل سبيلاً ممن يقول: إنه لا يجوز أن يقال: أين الله؟ بعد تصريح صاحب الشريعة بقوله: «أين الله؟»[٢].

وقال الدارمي رحمه الله تعالىٰ: ففي حديث رسول الله ﷺ هذا دليل علىٰ أن الرجل إذا لم يعلم أن الله عز وجل في السماء دون الأرض فليس بمؤمن ...[٣].

(١) صوابه: عن معاوية بن الحكم، وهم في اسمه مالك – كما قاله ابن عبد البر – والبزار وغيرهما، والحديث رواه مسلم (٥٣٧).

(٢) "الاقتصاد في الاعتقاد" (ص ٨٩).

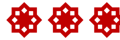
(٣) "الرد علىٰ الجهمية" (ص ١٧-١٨).

والمراد بالسماء: العلو.

* والعلو الثابت لله تعالىٰ نوعان:

١- علوٌّ مطلق: وهو صفة ذاتية لله عز وجل ثابتة بالكتاب والسنة، ومن أسمائه: العلي، الأعلىٰ، المتعال. قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلىٰ:١]، وأهل السنة يعتقدون أن الله تعالىٰ فوق جميع مخلوقاته عاليًا عليهم، وهذا العلو من صفات الله تعالىٰ الأولية الأزلية، ويشمل علو الذات والصفات.

٢- علوه علىٰ العرش، وعلوه علىٰ عرشه دليله قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، فالله جل وعلا له العلو المطلق قبل خلق العرش، وبعد خلقه واستوائه عليه، والاستواء: العلو والارتفاع(١).



(١) انظر "درء التعارض" (٧/ ٢٧/ ٦)، "الفتاوىٰ" (٤/ ٤٥)، (٢/ ٢٩٩)، "شرح الواسطية" للعثيمين (١/ ٣٨٦-٤٠٠)، "شرح لمعة الاعتقاد" (ص ٣٩-٤٠).

.

٨- باب فِي الْإِيمَانِ بِأَنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُ عِبَادَهُ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحَاسِبُ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَسْأَلُهُمْ مُشَافَهَةً مِنْهُ إِلَيْهِمْ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩]، وَقَالَ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١]، وَقَالَ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف:٦]، وَقَالَ: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]، وقال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء:١١٣].

وَهَلْ يُحَاسِبُ الْعِبَادَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَتَعَبَّدَهُمْ، وَأَحْصَى أَعْمَالَهُمْ وَحَفِظَهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَسْأَلَهُمْ عَنْهَا، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْقَدِيرُ.

الشرح

الحساب لغة: العدد.

وشرعًا: إطلاع الله تعالىٰ عباده علىٰ أعمالهم، وسؤالهم عنها، وبيان مقادير الجزاء عليها، وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

والحساب عامٌّ لجميع المكلفين إلا من استثناهم الدليل، كالسبعين ألفًا من هذه الأمة، ومنهم عكاشة، كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١).

وأول الأمم تحاسب هذه الأمة قبل سائر الأمم(٢).

ومن الحساب إجراء القصاص بين الخلائق(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) "شرح اللمعة" (ص ٧٧-٧٨).

(٣) "الإرشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد" (ص ٣٨٨).

قوله: (مُشَافَهَةً) الوارد في الأدلة (كِفاحًا) وأما لفظ المؤلف فالأولىٰ ترك مثل هذه التعبيرات، وعدم التوسع في الألفاظ؛ لعدم ورودها في الأدلة، بل يقتصر علىٰ الوارد، كما هو منهج أهل السنة والجماعة، إذ الأولىٰ – بل الواجب – أن يقال: إن الله عز وجل سيكلم كل أحد ليس بينه وبين الله ترجمان، كما في الحديث ...

و**قوله:** (﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]) ونحوها مما يدل علىٰ سؤال الرسل، إنما يسألون لتوبيخ الذين كذبوهم، كما تُسأل الموءودة لتوبيخ قاتلها(١).

و**قوله:** (﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:٦]) أي: سؤال توبيخ وتقريع.

و**قوله:** ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]).

* وفي معنىٰ سرعة الحساب خمسة أقوال:

١- قِلَّته.

٢- قرب مجيئه.

٣- أنه لما علم ما للمحاسب وما عليه قبل حسابه كان سريع الحساب لذلك.

٤- سريع المجازاة.

٥- سريع الحساب لكمال قدرته(٢).

قوله: (وَتَعَبَّدَهُمْ) أي: جعلهم عبيده، وهذا ردٌّ علىٰ من أشرك بالله تعالىٰ خالقِه، حيث عبد من لا يخلق ولا يملك الجزاء، ولا يقدر علىٰ الحساب.

قوله: (حَتَّىٰ يَسْأَلَهُمْ عَنْهَا) وسؤالهم عنها وتعريفهم بما قدموه زيادة في إظهار عدل الله تعالىٰ للخلائق، فيريهم أعمالهم ويعرفهم بجزائهم.

---

(١) انظر "دفع إيهام الاضطراب" للشنقيطي (ص ١٤٤)، سورة الأعراف.

(٢) "زاد المسير" (١/ ٢١٦).

قوله : (فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ...) هذا في حق الموحدين، أما أهل الشرك فقد قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨].



(٢٤/ ٤٨) عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا آخِذٌ بِيَدِ ابْنِ عُمَرَ إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اَللهِ ﷺ فِي اَلنَّجْوَىٰ؟ قَالَ سَمِعْتُه يَقُولُ: «إِنَّ اَللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْنِي اَلْمُؤْمِنَ مِنْهُ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ اَلنَّاسِ، فَيَقُولُ عَبْدِي أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي اَلدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اَلْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا اَلْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَإِنَّهُ يُنَادَىٰ عَلَىٰ رُؤُوسِ اَلْأَشْهَادِ هَؤُلَاءِ اَلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اَللهِ عَلَىٰ اَلظَّالِمِينَ»[١].

الشرح

قوله: (اَلنَّجْوَىٰ) هي ما تكلم به المرء يسمع من يُسر إليه دون من يليه، يقال: ناجيته إذا ساررته.

والمراد بها هنا: المناجاة التي تقع من الرب سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة مع المؤمنين.

وقال الكرماني: أطلق علىٰ ذلك النجوىٰ لمقابلة مخاطبة الكفار علىٰ رؤوس الأشهاد هناك.

و**قوله:** (يُدْنِي) أي: يقربه، وقد سبق معنىٰ القرب في الفصل السابق.

و**قوله:** (كَنَفَهُ) بالنون، أي: ستره، والمعنىٰ: يستره من أنظار الخلق، وقد جاء بلفظ: «يجعله في حجابه».

قوله: (فَيَقُولُ: عَبْدِي ...) فيه إثبات صفة الكلام لله عز وجل.

قوله: (ثُمَّ يُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ) وهذا في حق المؤمن الصالح، جمعًا بين هذا الحديث وأحاديث دخول بعض عصاة الموحدين النار، وأيضًا: هذه الذنوب هي مما بين العبد وربه دون مظالم الخلق.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

قوله: (وَأَمَّا اَلْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ) قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم فتحصىٰ، فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها(١).

وقال: والحساب يراد به الموازنة بين الحسنات والسيئات، وهذا يتضمن المناقشة، ويراد به عرض الأعمال علىٰ العامل وتعريفه بها(٢).

قوله: (اَلْأَشْهَاد) جمع شاهد، وهم الملائكة(٣).



(١) "الواسطية".

(٢) انظر "درء التعارض" (٥/ ٢٢٩)، "الفتاوىٰ" (٤/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٣) انظر شرح الحديث في "فتح الباري" (١٠/ ٥٩٨-٦٠٠).

(٢٥/ ٤٩) عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اَللهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»(١).

الشرح

فيه إثبات كلام الله عز وجل كما يليق بجلاله، وقد ذكره البخاري في كتاب التوحيد في باب كلام الله عز وجل.

وقوله: (تُرْجُمَانٌ) بفتح التاء وضمها، وهو المعبِّر عن لسان بلسان آخر، أي: من لغة إلىٰ لغة أخرىٰ.

وهذا الحديث وارد في ذكر الحساب، فلذلك أورده المؤلف هنا واختصره.



(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦).

٩- باب فِي الْإِيمَانِ بِالنَّظَرِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّهُ يَحْتَجِبُ عَنِ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ فَلَا يَرَوْنَهُ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وَقَالَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥]، فسبحان من ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣].

الشرح

عقد المؤلف هذا الباب لإثبات نظر المؤمنين إلىٰ ربهم عز وجل يوم القيامة، وفي الجنة، وهو مجمع عليه عند أهل الإيمان والسنة.

قوله: (﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾) الجنة، (﴿وَزِيَادَةٌ﴾) النظر إلىٰ الله عز وجل.

وقوله: (﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿٢١﴾) أي: جميلة من النضارة، (﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾) تنظر إليه سبحانه عيانًا[(١)].

وقوله: (﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾) عن النظر إلىٰ الله تعالىٰ، وهو قول الجمهور[(٢)].

وقال الدارمي رحمه الله تعالىٰ: قد صحَّت الآثار عن رسول الله ﷺ فمن بعده من أهل العلم، وكتاب الله ناطق به، فإذا اجتمع الكتاب وقول الرسول وإجماع الأمة لم يبق عندها تأول إلا لمكابر أو جاحد.

---

(١) انظر "تفسير ابن كثير" و"الطبري".

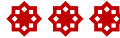
(٢) "الفتاوىٰ" (٦/ ٤٨٧).

أما الكتاب فقوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥]، ولم يقل للكفار (محجوبون) إلا وأن المؤمنين لا يحجبون عنه، فإن كان المؤمنون عندكم محجوبين عن الله تعالىٰ كالكفار؛ فأي توبيخ للكفار في هذه الآية إذا كانوا هم والمؤمنون جميعًا عن الله تعالىٰ يومئذٍ محجوبين[1].

وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ الآية. أي: لا تحيط به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، فالرؤية ثابتة، والإدراك منفي.

ولأهل البدع من نفاة الرؤية شُبه ذكر أكثرها وفندها شيخنا الإمام الوادعي في "صعقة الزلزال" المجلد الثاني.

وقد تكلمنا علىٰ أكثرها في موضع آخر.



(١) "الرد علىٰ الجهمية" (ص ١٠٣-١٠٤)، وانظر "بيان تلبيس الجهمية" (١/ ٣٤٨)، "الفتاوىٰ" (٦/ ٤٦٩)، "منهاج السنة" (٣/ ٣٤١)، (٢/ ٣١٦)، "شرح الواسطية" للعثيمين (١/ ٤٨-٥٨).

(٣٦/ ٥١) عَنْ جَرِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اَللهِ ﷺ لَيْلَةَ اَلْبَدْرِ فَقَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ هَذَا اَلْقَمَرَ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «هَكَذَا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ لَا تُضَامُّون فِي رُؤْيَتِهِ»[١].

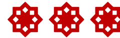
الشرح

قوله: (لَيْلَةَ اَلْبَدْرِ) هي ليلة أربعة عشر.

و**قوله:** (لَا تُضَامُّون) بتشديد الميم وتخفيفه، بالتشديد معناه: لا تزدحمون، وبالتخفيف: لا يلحقكم ضيم، ولا يحجب بعضكم بعضًا عن الرؤية، بل الكل يراه.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: فمن سمع بالنصوص علم بالاضطرار أن الرسول ﷺ إنما أخبر برؤية المعاينة، وأيضًا فإن أدلة المعقول الصريحة تُجوِّز هذ الرؤية[٢].

والأحاديث الواردة في الرؤية متواترة، كما ذكره الدارقطني في كتاب "الرؤية"، وابن القيم في "حادي الأرواح"، وشيخ الإسلام في كتابه "بيان تلبيس الجهمية" وغيرهم.



(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٥٧٣) نحوه.

(٢) "بيان تلبيس الجهمية" (١/ ٣٦٧)، "الفتاوىٰ" (١٦/ ٨٤).

(٢٧/ ٥٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَيْسَ دُونَهُ حِجَابٌ؟». قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، وَلَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ؟». قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَلَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا»(١).

(٢٨/ ٥٣) عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ نُودُوا يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ مَوْعِدًا قَالُوا: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ فَيَظْهَرُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]»(٢).

(٢٩/ ٥٦) عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة:٢٢] قَالَ: نَاعِمَةٌ. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٣] قَالَ: تَنْظُرُ إِلَى اللهِ، قَالَ يَحْيَىٰ: وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَيَحْتَجِبُ عَنْهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥](٣).

الشرح

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: وقد ثبتت رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها(٤).

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) نحوه.

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) نحوه، وقد أعله الدارقطني بالإرسال، وصححه آخرون.

(٣) رجاله ثقات.

(٤) وذكر هذه الأحاديث، تفسير القيامة.

وقال النووي رحمه الله تعالىٰ: اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالىٰ ممكنة غير مستحيلة عقلاً ... وزعمت طائفة من أهل البدع المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة أن الله تعالىٰ لا يراه أحد من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً، وهذا الذي قالوه خطأ صريح، وجهل قبيح، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة علىٰ إثبات رؤية الله تعالىٰ في الآخرة للمؤمنين، ورواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ، وآيات القرآن في ذلك مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها أجوبة مشهورة ... اهـ[١].

وأما رؤية الله تعالىٰ في الدنيا فقط فلا تقع؛ لقول النبي ﷺ: «لن تربوا ربكم حتىٰ تموتوا»، رواه مسلم. ومن زعم أنه يراه في الدنيا عيانًا فهو ضالٌّ كاذب مخالف للكتاب والسنة والإجماع[٢].

وقالت الأشاعرة: إن الله يرىٰ من غير معاينة ولا مواجهة، وهو قول انفردوا به دون سائر طوائف الأمة، وجمهور الأمة علىٰ أن فساد هذا معلوم بالضرورة، فقد شبه النبي ﷺ الرؤية إليه سبحانه بالرؤية إلىٰ الشمس والقمر، فيجب أن نراه كذلك، أما رؤية ما لا نعاين ولا نواجهه فهذه غير متصوَّرة في العقل فضلاً أن تكون كرؤية الشمس والقمر، وسبب قولهم المتناقض هذا هو محاولتهم نفي علو الله تعالىٰ علىٰ خلقه[٣].

---

(١) "شرح مسلم" (٣/ ١٤-١٥).

(٢) "الفتاوىٰ" (١/ ٣٣٧)، (٣/ ٣٩١)، (٦/ ٥١٢)، "مختصر توحيد ابن خزيمة" (ص ١٨٠).

(٣) "درء التعارض" (٧/ ٢٣٩)، "الفتاوىٰ" (١٦/ ٨٤-٨٥).

١٠- باب فِي اَلْإِيمَانِ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ أَنَّ اَللَّوْحَ اَلْمَحْفُوظَ وَالْقَلَمَ حَقٌّ يُؤْمِنُونَ بِهِمَا، وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج:٢١-٢٢] وَقَالَ: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩] وَقَالَ: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق:٤].

الشرح

اللوح: هو اللوح الذي كتب الله تعالىٰ فيه مقادير الخلائق.

والقلم: هو القلم كتب الله تعالىٰ به مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

وهو أول الأقلام وأفضلها.

واللوح والقلم مخلوقان وصفتهما من علم الغيب الذي نؤمن به ولا نعلم كيفيته.

ومسألة اللوح والقلم لها تعلق بالقدر من جهة أن من مراتب القدر: الكتابة.

والكتابة كانت بالقلم في اللوح المحفوظ، ولهذا لا يتم الإيمان بالكتابة إلا بالإيمان باللوح والقلم.

واعتقاد أن بعض الخلق والناس يطَّلع علىٰ اللوح المحفوظ -كما تزعم الصوفية- يعتبر كفرًا بالآيات والأحاديث المصرحة بأنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالىٰ.

وأما ما زعمته الأشاعرة أن جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ فباطل، فجبريل لم يبلغ ذلك، وسبب قولهم دعوىٰ أن كلام الله تعالىٰ نفسي.

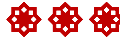
وقوله: (حَقٌّ يُؤْمِنُونَ بِهِمَا) والإيمان بهما واجب، لأن ذلك مما ورد في الكتاب والسنة، والإيمان بما ورد فيهما من الإيمان بالله تعالىٰ ورسوله صلىٰ الله عليه وسلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج:٢١-٢٢] محفوظ من الزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين؛ لا يصلون إليه، فاللوح محفوظ، والقرآن محفوظ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:٩][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] هو اللوح المحفوظ.

سمي (أم الكتاب) أي: أصل الكتاب الذي كتب فيه المقادير، ومنها: مقادير العمر بعد نفخ الروح، ومقادير السنة في ليلة القدر، ومقادير كل يوم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]، هذا في المقادير التي ذكرت، ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] اللوح المحفوظ الذي جفَّ القلم بما فيه فلا تغيير فيه ولا تبديل.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق:٤] دلالة علىٰ أن اللوح المحفوظ في العلو.



(١) "بدائع التفسير" (٥/ ١٧٦).

(٣٠/ ٥٧) عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ اَلصَّامِتِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اَللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اَللهُ اَلْقَلَمَ ثُمَّ قَالَ: اُكْتُبْ فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ اَلسَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ ...»(١).

(٣١/ ٥٨) عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قَالَ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اَللهُ اَلْقَلَمَ وَخُلِقَتْ لَهُ اَلدَّوَاةُ وَهِيَ اَلنُّونُ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: اُكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ، مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ اَلْقَدَرَ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ، فَجَرَىٰ بِمَا كَانَ حَتَّىٰ تَقُومَ اَلسَّاعَةُ»(٢).

الشرح

هذه الأدلة صريحة أن أول ما خُلِق القلم، وذهب جمهور السلف إلىٰ أن العرش والماء قبل القلم؛ لحديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علىٰ الماء».

وفسروا حديث: «أول ما خلق الله القلم» أي: من هذا العالم لا في مطلق الأشياء؛ لأنه كتب ما يحدث في هذا العالم إلىٰ قيام الساعة.

وقيل: معناه (أولَ) بالفتح، أي: حين خلق الله القلم أمره بالكتابة.

وتفسير ابن عباس (ن) بالدواة مرجوح، بل هو من الحروف المقطعة التي لم نعلم معانيها.

وقوله: (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اَللهُ اَلْقَلَمَ) وهو قلم الوحي الذي كتب به اللوح المحفوظ، وهذا القلم تتلوه أقلام أخرىٰ؛ يكتب بها في الملأ الأعلىٰ، كما في حديث الإسراء أن النبي ﷺ رفع حتىٰ سمع صريف الأقلام. وكلها تابعة للقلم الأول.

---

(١) حسن لغيره. أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وابن أبي عاصم في "السنة" (١٠٧)، وغيرهما، وحسنه الألباني.

(٢) حسن لغيره. أخرجه عبد الله بن أحمد في "السنة" (٨٧١، ٨٩٤)، وابن جرير في "التفسير" (٢٩/ ١٥) وغيرهما.

١١- باب فِي الْإِيمَانِ بِأَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ قَدْ خُلِقَتَا

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنَّ اَلْجَنَّةَ وَالنَّارَ قَدْ خُلِقَتَا، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]، وَقَالَ: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [يس:٢٦]، وَقَالَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦].

الشرح

اتفق أهل السنة علىٰ أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة علىٰ ذلك حتىٰ نبتت نابتة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وقالت: ينشئهما الله تعالىٰ يوم القيامة(١).

وقال الإمام الآجري رحمه الله تعالىٰ: اعلموا – رحمنا الله وإياكم – أن القرآن شاهد أن الله عز وجل خلق الجنة والنار قبل أن يخلق آدم عليه السلام، وخلق للجنة أهلاً وللنار أهلاً قبل أن يخرجهم إلىٰ الدنيا، لا يختلف في هذا من شمله الإسلام، وذاق حلاوة طعم الإيمان، دل علىٰ ذلك القرآن والسنة، فنعوذ بالله ممن كذَّب بهذا(٢).

قوله تعالىٰ: (﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ ...﴾ [البقرة:٣٥]) الآية.

دليل صريح علىٰ أن الجنة موجودة قبل خلق آدم، وهذه الجنة هي دار المتقين وليست جنة أخرىٰ، وهي في السماء، وليست في الأرض كما يقول المعتزلة وغيرهم، فإن الهبوط يكون من أعلىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة:٣٨].

---

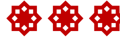
(١) "جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١٠٥٦).

(٢) "الشريعة" (ص ٣٨٧).

وقوله تعالىٰ: (﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [يس:٢٦]) في شأن صاحب (يس) دلالة صريحة أيضًا.

وقوله تعالىٰ: (﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ...﴾ [غافر:٤٦]) في شأن فرعون وقومه، وهذا العرض في حياة البرزخ، وأما دخولهم إليها فيوم القيامة، والآية صريحة في وجود النار، وإلّا كيف سيعرضون عليها.

والأدلة كثيرة جداً في هذا الباب[١].



(١) انظر "جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١٠٥٦-١٠٧٢).

(٣٣/ ٦٣) عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا نَسْمَةُ اَلْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ اَلْجَنَّةِ حَتَّىٰ يُرْجِعَهُ اَللهُ إِلَىٰ جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»(١).

الشرح

قوله: (نَسْمَةُ اَلْمُؤْمِنِ) أي: روحه، والمراد به: الشهيد، لا عموم المؤمنين، لأدلة أخرىٰ في الباب.

(طَيْرٌ) أي: كالطير في القدرة علىٰ الطيران، ويحتمل أن المراد: تدخل في بدن طائر كما في روايات أخرىٰ: «في جوف طير».

(يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ اَلْجَنَّةِ) أي: بعد طيرانها تأوي إلىٰ شجر الجنة أو إلىٰ العشر.

قوله: (حَتَّىٰ يُرْجِعَهُ اَللهُ ...) اختلف العلماء في مستقر الأرواح ما بين الموت إلىٰ قيام الساعة علىٰ أقوال كثيرة، وظاهر الأدلة أن الأرواح متفاوتة، فمنها أرواح الأنبياء في عليين كما في حديث الإسراء، وأرواح الشهداء في الجنة كما في حديث كعب – إلا من شاء الله منهم – وأرواح بعض المؤمنين تسرح حيث شاءت، وأرواح العصاة منها ما يحبس في قبره ويُعذَّب مع البدن، ومنها ما تعذَّب فيه الروح فقط، كما دل علىٰ عذابها حديث سمرة الطويل وغيره، فالزناة في تنور، وأصحاب الربا في بحر الدم، ... وهكذا.

وأما أرواح الكافرين والمنافقين فأرواحهم في سجين، وفي قبورهم في العذاب، كما قال تعالىٰ في فرعون وقومه: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر:٤٦](٢).



(١) صحيح. أخرجه مالك (١/ ص ١٨٦)، وأحمد (٣/ ٤٥٥)، وابن ماجه (٤٢٧١)، وصححه الألباني.

(٢) "شرح ابن ماجه" عند حديث كعب، انظر "جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١٠٢٣-١٠٢٩).

(٣٤/ ٦٤) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَسَفَتْ اَلشَّمْسُ فَصَلَّىٰ رَسُولُ اَللهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ اَلْحَدِيثَ. وَفِيهِ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اَللهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ تَكَعْكَعْتَ. فَقَالَ: «رَأَيْت اَلْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ اَلدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ اَلنَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا اَلنِّسَاءَ»(١).

الشرح

(خَسَفَتْ اَلشَّمْسُ) الخسوف والكسوف يكون بذهاب ضوئها كله أو بعضه.

(فَصَلَّىٰ ...) صلاة الكسوف فرض كفاية، وتؤدىٰ جماعة في المسجد.

وقوله: (تَكَعْكَعْتَ) أي: توقفت ورجعت القهقرىٰ إلىٰ الوراء.

وقوله: (عُنْقُودًا) أي: من ثمارها. (مَا بَقِيَتْ اَلدُّنْيَا) لأن نعيم الجنة لا يزول ولا يفنىٰ.

وقوله: (رَأَيْت اَلْجَنَّةَ ... وَرَأَيْتُ اَلنَّارَ) هذا هو الشاهد من الحديث، وهذه الرؤية رؤية عين، كشف الله تعالىٰ عنهما وأزال الحجب بينه وبينهما حتىٰ رآهما في جهة الجدار أمامه.

وقد قيل: رؤية علم لا عين، وهذا ضعيف، والأول هو ظاهر الحديث(٢).



(١) أخرجه البخاري (٢٩، ١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

(٢) "شرح مسلم" (٦/ ١٨٤).

١٢- باب فِي الْإِيمَانِ بِأَنَّ الْجَنَّةَ والنَّارَ لا يَفْنَيَانِ

وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ لا يَفْنَيَانِ، وَلَا يَمُوتُ أَهْلُهُمَا، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، وَقَالَ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦]، وَقَالَ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ [الدخان:٥٦].

وَقَالَ رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ وَتَكْذِيبًا لَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة:٨٠-٨١]، وَالسَّيِّئَةُ هَاهُنَا الشِّرْكُ، كَذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة:٨١].

وَقَالَ عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر:٣٤-٣٦]، وَقَالَ: ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف:٣]، وَقَالَ: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨].

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلَوْ لَمْ يَذْكُرْ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْخُلُودَ إِلَّا فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ لَكَانَتْ كَافِيَةً لِمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ. وَلَكِنْ رَدَّدَ ذَلِكَ لِيَكُونَ لَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ.

الشرح

عقد المؤلف هذا الباب وأطال فيه؛ ردًّا علىٰ من قال بفناء الجنة والنار.

وعلىٰ من قال بانقطاع نعيم الجنة وعذاب النار دون فنائهما.

وعلىٰ من قال: إن عذاب النار يصير في يوم برداً كما كانت النار علىٰ إبراهيم برداً وسلامًا،

وقول رابع: أن النار ناران: نار للكفار لا تفنىٰ، ولا يخمد عذابها، ونار للموحدين، إذا خرج منها الموحدون فَنِيَت.

هذه أربعة أقوال، أما الثلاثة الأولىٰ فباطلة؛ لمصادمتها للأدلة الكثيرة الصريحة في خلود الجنة ونعيمها، وخلود النار وعذابها، وأكثر أهل تلك الأقاويل أهل بدع وضلال أو كفر.

وأما القول الرابع فقد قال به بعض أهل السنة، واستدلوا علىٰ ذلك بأدلة وآثار عند الفحص لا يصح منها شيء.

وليس في القرآن ما يدل علىٰ ذلك البتة، بل الأدلة ترد عليهم كما ذكر المؤلف.

والذي عليه عامة أهل السنة من السلف والخلف هو ما ذكره المؤلف.

وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في جميع الأمصار ... فقالا: ... والجنة والنار حق، وهما مخلوقتان لا تفنيان أبداً، فالجنة ثواب لأوليائه، والنار عقاب لأهل معصيته إلا من رحم[(١)].

وقد ذكر الشنقيطي هذه الأقاويل في فناء النار ... وقال: وكل هذه الأقسام الأربعة يدل القرآن علىٰ بطلانها.

أما فناؤها فقد نص القرآن علىٰ عدمه بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧]،

وبيّن عدم الانقطاع في خلود أهل الجنة بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]،

(١) ذكره اللالكائي والهمداني وغيرهما.

وبقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص:٥٤].

وأما موتهم – أي: أهل النار – فقد نص الله تعالىٰ علىٰ عدمه بقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [فاطر:٣٦]، أما إخراجهم منها فنص تعالىٰ علىٰ عدمه بقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

وأما تخفيف العذاب عنهم فنص تعالىٰ علىٰ عدمه بقوله: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦]، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠].

فإذا تبين بهذه النصوص بطلان جميع هذه الأقسام تعيَّن القسم الخامس الذي هو خلودهم فيها أبداً بلا انقطاع ولا تخفيف، ولا غرابة في ذلك؛ لأن خبثهم الطبيعي دائم لا يزول، فكان جزاؤهم دائمًا لا يزول، والدليل علىٰ أن خبثهم لا يزول قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:٢٣] الآية. اهـ مختصرًا[(١)].

وعصاة الموحدين يعذبون في النار التي يعذب فيها الكفار كما قال تعالىٰ: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، وهذا حين يخرج الموحدون من النار فيراهم الكفار فيتحسرون.

لكن جنس عذاب الموحدين يختلف عن جنس عذاب الكفار، فعذاب الموحدين منقطع وأخف من عذاب الكفار.



(١) "دفع إيهام الاضطراب" (ص ١٢٢-١٢٨) ط. عالم الكتب.

(٣٥/ ٦٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَطَّلِعُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَكَانِهِمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ: فَيَطَّلِعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ فَرِحِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَكَانِهِمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَبَّنَا هَذَا الْمَوْتُ، فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا: خُلُودٌ فِيمَا تَجِدُونَ لَا مَوْتَ فِيهَا أَبَدًا»[(١)].

الشرح

(يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ) في صورة كبش، وذلك بقدرة الله تعالىٰ، وهو علىٰ كل شيء قدير.

قوله: (هَذَا الْمَوْتُ) يعرفونه بإلهام الله تعالىٰ لهم معرفته، وإن كانوا لم يروه في هذه الصورة من قبل.

قوله: (لَا مَوْتَ فِيهَا أَبَدًا) هذا دليل علىٰ عدم انقطاع النعيم لأهله، وعدم انقطاع العذاب عن أهله.

وهذا إنما يكون بعد خروج الموحدين من النار.

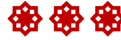


(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٥) مختصرًا، وأخرجه ابن ماجه (٤٣٢٧) وغيرهم، وصححه الألباني.

(٣٦/ ٦٩) عَنْ اِبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اَللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا أَدْخَلَ اَللهُ أَهْلَ اَلْجَنَّةِ اَلْجَنَّةَ، وَأَهْلَ اَلنَّارِ اَلنَّارَ، نَادَىٰ مُنَادٍ: يَا أَهْلَ اَلْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ اَلنَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَكُلٌّ خَالِدٍ فِيمَا هُوَ فِيهِ»(١).

الشرح

(نَادَىٰ مُنَادٍ) هذا يكون بعد ذبح الموت كما سبق، وهو صريح في ديمومة النعيم والعذاب.



(١) سند المؤلف ضعيف، والحديث صحيح أخرجه البخاري (٦٥٤٤) ومسلم (٢٨٥٠) نحوه.

١٣- باب فِي الْإِيمَانِ بالحَفَظَةِ

وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَفَظَةِ اَلَّذِينَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَ اَلْعِبَادِ.

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ وَقَالَ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

الشرح

الحفظة من الملائكة، ولفظ الملائكة مشتق من الألوكة، وهي الرسالة.

وهم: عالم غيبي خلقهم الله تعالىٰ من نور وجعلهم طائعين له، وجعل لكل واحد منهم وظائف، وأسكنهم سمواته، ووصفهم بأنهم لا يعصون الله تعالىٰ ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

والمراد بالحفظة: الذين يحفظون علىٰ المكلفين ما صدر منهم، وذلك بكتابته في صحف بأيديهم، وهما ملكان: أحدهما موكل بكتابة الحسنات والآخر موكل بكتابة السيئات، وهما ملازمان للمكلف ليله ونهاره، يكتبون أعمال القلب والجوارح، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

وليس هذا من علم الغيب بل مما أقدرهم الله تعالىٰ عليه.

والحكمة من كتابة الأعمال ما ذكر الله تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

ووصفهم بقوله: (كِرَامًا) أي: كرامًا عند الله تعالىٰ، ومكرمون، وهذا إرشاد للإنسان بأن يكرمهم؛ فلا يُظهر أمامهم السيئات.

ووصفهم بقوله: (رَقِيبٌ عَتِيدٌ) رقيب: شاهد ومراقب، عتيد: حاضر، فلا يفارقه، وهذان الوصفان لكل واحد من الملكين معًا.

وأنكرت الجهمية الكرام الكاتبين، كما أنكرت ملك الموت، ومنكرًا ونكيرًا.

وأنكرت العقلانية كثيرًا من أوصاف الملائكة.



١٤- باب فِي الْإِيمَانِ بِقَبْضِ مَلَكِ الْمَوْتِ الْأَنْفُسَ

وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ مَلَكَ اَلْمَوْتِ يَقْبِضُ اَلْأَنْفُسَ.

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

فَإِذَا قَبَضَ نَفْسًا مُؤْمِنَةً دَفَعَهَا إِلَىٰ مَلَائِكَةِ اَلرَّحْمَةِ، وَإِذَا قَبَضَ نَفْسًا كَافِرَةً أَوْ فَاجِرَةً دَفَعَهَا إِلَىٰ مَلَائِكَةِ اَلْعَذَابِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بَلْ يَقْبِضُونَهَا مِنْ مَلَكِ اَلْمَوْتِ ثُمَّ يَصْعَدُونَ بِهَا إِلَىٰ اَللهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

الشرح

سبق أن الجهمية والعقلانية أنكرت هذا.

ولذلك ذكرت هذه المسائل في كتب الاعتقاد، فغالب تفاصيل مسائل العقيدة إنما نُص عليها في كتب الاعتقاد من باب الرد علىٰ المبتدعة.

وملك الموت يقال اسمه: عزرائيل، ولا يثبت فيه حديث.

وقال الطحاوي في عقيدته: ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين. أ.هـ

وقبض الأرواح هو: مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، والنفس باقية بعد خروجها حتىٰ تعود إلىٰ الجسد في القبر أو في الجنة أو النار.

قوله: (فَإِذَا قَبَضَ نَفْسًا مُؤْمِنَةً دَفَعَهَا إِلَىٰ مَلَائِكَةِ اَلرَّحْمَةِ...) وملك الموت له أعوان من الملائكة، وهو أعلاهم، وهو الذي يستخرج الروح من البدن، ثم تأخذها الملائكة كما ذكر المؤلف.

وهو وارد بنصه في حديث البراء الطويل في الموت وعذاب القبر.

قوله: (ثُمَّ يَصْعَدُونَ بِهَا إِلَىٰ اَللهِ) في حديث البراء: (فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ

الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيَسْتَقْبِلُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَأَعِيدُوهُ إِلَىٰ الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ، فَيُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ)

وقال في الكافر: (فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلَكٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ : فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي لدُّنْيَا حَتَّىٰ يُنْتَهىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ فَلاَ يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ قَالَ : فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَىٰ، وَأَعِيدُوهُ إِلَىٰ الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ، قَالَ: فَيُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، قَالَ : ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَان سَحِيقٍ﴾ قَالَ: فَيُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ).

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ أي: رجعوا بعد الموت والحياة البرزخية إلىٰ الله تعالىٰ، ورجوعهم بالبعث يوم القيامة، وهذا الذي عليه أكثر المفسرين، وإن كان الموت بداية الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ.



١٥- باب فِي الْإِيمَانِ بِسُؤَالِ الْمَلَكَيْنِ

وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ هَذِهِ اَلْأُمَّةَ تُفْتَنُ فِي قُبُورِهَا، وَتُسْأَلُ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ كَيْفٍ شَاءَ اَللَّهُ، وَيُصَدِّقُونَ بِذَلِكَ بِلَا كَيْفٍ، قَالَ اَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧].

الشرح

الإيمان بسؤال الملكين داخل في الإيمان بعذاب القبر ونعيمه، وسيأتي في الباب (١٦)، وهذان الملكان هما منكر ونكير، كما دل عليه حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعـًا: «إذا قُبِر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر، وللآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل...»(١). وسُمِّيا بهذه الأسماء لأن كل مَن يراهما ينكرهما لما هم عليه من وحشة المنظر، وأنكره بعض المبتدعة كما سيأتي(٢).

وفتنة القبر هي سؤال الملكين العبدَ: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟

وهذه الفتنة عامة في جميع بني آدم إلا مَن دل الدليل عليه؛ كالأنبياء والشهداء في المعركة والمرابط، ومن عداهم يُسأل. وهل يسأل الطفل والمجنون؟

عموم الأدلة تدل علىٰ أنهم يسألون، ومنها حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق، ورجحه شيخ الإسلام(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٢/ ٢٦٧)، وحسنه الألباني وغيره.

(٢) "معارج القبول" (٢/ ٧٢١)، "عارضة الأحوذي" (٤/ ٢٩٢)، "جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١٠١٧ وما بعدها).

(٣) "جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١٠١٧-١٠٢١)، "الفتاوىٰ" (٤/ ٢٥٧-٢٨٠).

ومن مات في البحر أو أكلته الطير والوحش يعيده الله تعالىٰ حيث شاء، ويسأل في قبره الذي كتبه الله تعالىٰ له.

وقوله: (وَيُصَدِّقُونَ بِذَلِكَ بِلَا كَيْفٍ) لأن هذه الفتنة من أمور الغيب التي لا نعلم كيف هي، إلا ما ورد في الأدلة.

وقوله: (﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾) أي: يسددهم في الجواب عن سؤال الملكين.

(﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾) فلا يصيب في جوابه، بل يقول: لا أدري.



(٣٧/ ٨١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ اَلْأُمَّةَ تُبْتَلَىٰ فِي قُبُورِهَا إِذَا دَخَلَ اَلْمُؤْمِنُ قَبْرَهُ، وَتَوَلَّىٰ عَنْهُ أَصْحَابُهُ جَاءَ مَلَكٌ شَدِيدُ اَلِانْتِهَارِ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا اَلرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: أَقُولُ إِنَّهُ رَسُولُ اَللهِ وَعَبْدُهُ، فَيَقُولُ لَهُ اَلْمَلَكُ: اُنْظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ اَلَّذِي كَانَ لَكَ مِنْ اَلنَّارِ، قَدْ أَعَاذَكَ اَللهُ مِنْهُ وَأَبْدَلَكَ بِمَقْعَدِكَ اَلَّذِي فِي اَلنَّارِ مَقْعَدُكَ اَلَّذِي تَرَىٰ مِنَ اَلْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا كِلَيْهِمَا. فَيَقُولُ اَلْمُؤْمِنُ: دَعُونِي أُبَشِّرُ أَهْلِي، فَيُقَالُ لَهُ: اُسْكُنْ، وَأَمَّا اَلْمُنَافِقُ فَيَقْعُدُ إِذَا تَوَلَّىٰ عَنْهُ أَهْلُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا اَلرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي أَقُولُ مَا يَقُولُ اَلنَّاسُ، فَيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ، هَذَا مَقْعَدُكَ اَلَّذِي كَانَ لَكَ فِي اَلْجَنَّةِ قَدْ أُبْدِلْتَ مَكَانَهُ مَقْعَدًا مِنَ اَلنَّارِ».

(٣٨/ ٨١) وَسَمِعْتُ اَلنَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (يُبْعَثُ كُلَّ عَبْدٍ فِي اَلْقَبْرِ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ)(١).

الشرح

(تُبْتَلَىٰ) تُمتحن.

(جَاءَ مَلَكٌ) منكر ونكير، وهما مَلَكان.

(فِي هَذَا اَلرَّجُلِ) أي: رسول الله محمد ﷺ، وكل أمة تسأل عن رسولها ما دام شرعه باقيًا فيهم لم ينسخ، فإذا نسخ كان السؤال عمَّن بعده، فاليهود بعد مبعث عيسىٰ يُسألون عن عيسىٰ، وهم والنصارىٰ بعد مبعث محمد ﷺ يُسألون عنه لا عن الرسل المتقدمة، والله أعلم.

وقوله: (دَعُونِي أُبَشِّرُ أَهْلِي) أي: في الدنيا، والله أعلم.

وقوله: (يُبْعَثُ كُلَّ عَبْدٍ فِي اَلْقَبْرِ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ) ومعناه: يبعث علىٰ الحال التي مات

---

(١) حسن لغيره. أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٦) وغيره، وله شاهد من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في "الصحيح" وحديث البراء الطويل عند أبي داود.

عليها من خير أو شر.

قال الهروي: وليس قول من ذهب إلىٰ أنه يبعث في الأكفان بشيء.

وهذا جيد جمعًا بين الأدلة كحديث: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ...) [(١)]



(١) رواه البخاري (٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠).

١٦- باب فِي الْإِيمَانِ بِعَذَابِ الْقَبْرِ

وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِعَذَابِ الْقَبْرِ - أَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ مِنْ ذَلِكَ - قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]، وَقَالَ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ١٠١﴾ [التوبة:١٠١].

الشرح

ونؤمن بعذاب القبر لمن كان له أهلاً، والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران ...[(١)].

وقال أبو بكر الإسماعيلي في "اعتقاد أهل الحديث"[(٢)]: ويقولون: إن عذاب القبر حق يعذب الله من استحقه إن شاء، وإن شاء عفا عنه.

وأنكره بعض المبتدعة من الجهمية والمعتزلة والفلاسفة، وبعض أهل الكلام، بدعوىٰ أن أحاديثه آحاد، وأن العقل لا يدل عليه، وهذا قول باطل.

قوله: (﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]) فسرت بعذاب القبر، جاء ذلك عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف أصح، وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، قال ابن كثير: وإسناده جيد[(٣)].

وقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ مرتين: عذاب في الدنيا، وعذاب في القبر، ورد ذلك عن جماعة من المفسرين من السلف كما ذكر ابن كثير رحمه الله تعالىٰ.

---

(١) قاله الطحاوي.

(٢) (ص ٦٩).

(٣) "تفسير ابن كثير" عند هذه الآية من سورة طه.

(٣٩/ ٨٢) عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ اَلنَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ يَهُودِيَّةً جَاءَتْهَا تَسْأَلُ فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكِ اَللهُ مِنْ عَذَابِ اَلْقَبْرِ. وَذَكَرَ اَلْحَدِيثَ. وَفِي آخِرِهِ: أَنَّ رَسُولَ اَللهِ ﷺ أَمَرَ اَلنَّاسَ أَنْ يَتَعَوَّذُوا بِاَللهِ مِنْ عَذَابِ اَلْقَبْرِ(١).

الشرح

(جَاءَتْهَا تَسْأَلُ) مالاً أو طعاماً. (فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكِ اَللهُ مِنْ عَذَابِ اَلْقَبْرِ) هذا مما ذُكر في التوراة، وكان معلوماً لدىٰ اليهود ذكر عذاب القبر ونعيمه، والأدلة كثيرة علىٰ عموم عذاب القبر ونعيمه لجميع الأمم.

والشاهد من الحديث: إقراره ﷺ لها، وأمره بالاستعاذة من عذاب القبر، وذلك ثابت عن جمع من الصحابة مرفوعاً.

وعذاب القبر يكون علىٰ الروح والبدن تارة، وعلىٰ الروح وحده أخرىٰ(٢).



---

(١) أخرجه البخاري (١٠٤٩)، ومسلم (٩٠٣).

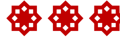
(٢) "الفتاوىٰ" (٤/ ٢٨٩)، "جامع شروح الطحاوية" (ص ١٠١٣).

(٤٠/ ٨٣) عَنْ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمُسَيَّبِ قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَىٰ صَبِيٍّ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً قَطُّ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «اَللَّهُمَّ أَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ اَلْقَبْرِ»(١).

الشرح

قال الشيخ صالح آل الشيخ: من مات صغيراً ولم يبلغ سن التكليف، أو مات وهو مجنون، أو ... إلىٰ آخره ممن ليسوا محل التكليف، هل يحصل لهم عذاب في القبر أو نعيمه؟ اختلف العلماء، فقيل: يصيبه العذاب كما يصيبه النعيم ...

والقول الثاني – وهو الصحيح الذي عليه أهل التحقيق – أن المراد بقوله: أعذه من عذاب القبر: الألم الذي يحصل للمدفون، وليس المراد منه العذاب الذي يصيب الكبار، وهو العذاب علىٰ السيئات(٢).



(١) صحيح موقوفًا، ورفعه شاذٌّ.

(٢) بتصرف من "شرح الطحاوية" (ص ١١٠٧) من "الجامع".

١٧- باب فِي الْإِيمَانِ بِالحَوضِ

وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوْضًا أَعْطَاهُ اَللهُ إِيَّاهُ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا.

[٤١/ ٨٧] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اَللهِ صَلَّىٰ اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ ظُهُورِنَا حَتَّىٰ إِذَا غَفَا إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُبْتَسِمًا، فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اَللهِ؟ فَقَالَ: نَزَلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ فَقَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا اَلْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا اَللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ يَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي، آنِيَتُهُ عَدَدُ اَلنُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ اَلْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ.

الشرح

قوله: (إِذَا غَفَا إِغْفَاءَةً) نام نومة خفيفة، (الْكَوْثَرَ) النهر الذي يصب في الحوض، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ الصلاة والذبح عبادتان من صرفهما لغير الله تعالىٰ وقع في الشرك الأكبر كما هي القاعدة: [ما ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله تعالىٰ شرك أكبر] مخرج من الملة.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ شانئك: مبغضك ومعاديك.

(يَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي) يعني أمة الإجابة، ويدخل في ذلك من ارتد بعد إسلامه والمنافقون كما جاء ذلك في روايات أخرىٰ لكنهم يطردون عنه.

(فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ) يقتطع ويجتذب ويسحب إلىٰ النار، وهؤلاء هم المرتدون والمنافقون والمبتدعة والظلمة ونحوهم.

(فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي) هذا باعتبار معرفته لهم في حياته كالأعراب الذين ارتدوا بعده، أو ظهور علامات هذه الأمة عليهم، فيعرفهم بذلك، أو لأنهم حشروا مع أمته، والله أعلم.

(فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ) أي: ارتدوا أو ابتدعوا كما هو حاصل من غلاة فرق الابتداع.

والشاهد من الحديث: ذكر ووصف الحوض.



(٤٢/ ٨٨) عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اَللهِ صَلَّىٰ اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رِجْلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اَللهِ مَا حَوْضُكَ هَذَا اَلَّذِي تُحَدِّثُ عَنْهُ؟ قَالَ: (هُوَ مَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَىٰ عُمَانَ، شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اَللَّبَنِ وَأَحْلَىٰ مِنَ اَلْعَسَلِ وَفِيهِ مِنَ اَلْآنِيَةِ أَوْ قَالَ مِنَ اَلْأَبَارِيقِ مِثْلُ عَدَدِ نُجُومِ اَلسَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، أَوَّلُ اَلنَّاسِ لَهُ وُرُودًا فُقَرَاءُ اَلْمُهَاجِرِينَ) قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اَللهِ؟ قَالَ: (اَلشُّعْثُ رُؤُوسًا، اَلدُّنْسُ ثِيَابًا، اَلَّذِينَ لَا تُفْتَحُ لَهُمْ اَلسُّدَدُ وَلَا يَنْكِحُوا اَلْمُتَنَعِّمَاتِ اَلَّذِينَ يُعْطُونَ اَلَّذِي عَلَيْهِمْ وَلَا يُعْطَوْنَ اَلَّذِي لَهُمْ) (١).

الشرح

قوله: (مَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَىٰ عُمَانَ) جاء أيضًا بلفظ (مسيرة شهر) (كما بين صنعاء وأيلة) (كما بين صنعاء والمدينة) (كما بين الكعبة وبيت المقدس)...

قال القرطبي رحمه الله تعالىٰ: لعل ذكره للجهات المختلفة بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهة، فيخاطب كل قوم بالجهة التي يعرفونها.

وأما التفاوت الحاصل بين مسافة البلدان فهذا باعتبار سرعة السير: بين المخف والبطيء.

والقول الفصل في هذا أنه مسيرة شهر.

قوله: (مِثْلُ عَدَدِ نُجُومِ اَلسَّمَاءِ) وفي الصحيح: (أكثر من عدد نجوم السماء) وهو إشارة إلىٰ كثرتها بحيث لا يحصل أدنىٰ تزاحم عليها.

قوله: (وُرُودًا فُقَرَاءُ اَلْمُهَاجِرِينَ) وهذا من إكرام الله تعالىٰ لهم، كما أكرمهم بأنهم أول أهل الجنة دخولًا.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٤٣٧) وقال الألباني: إسناده صحيح، الصحيحة (١٠٨٢) وسند المؤلف ضعيف جدًّا.

قوله: (اَلشُّعْثُ رُؤُوسًا) أي: شعورهم (اَلدُّنْسُ ثِيَابًا...) أي: رثة ثيابهم لطول لبسها، وليس معناه أنهم لا يهتمون بالنظافة.

قوله: (لَا تُفْتَحُ لَهُمْ اَلسُّدَدُ وَلَا يَنْكِحُوا اَلْمُتَنَعِّمَاتِ) لا تفتح لهم الأبواب احتقارًا لهم، ولا يقبل تزويجهم ببنات المترفين الناعمات الجميلات لفقرهم وهوانهم علىٰ الناس.

قوله: (اَلَّذِينَ يُعْطُونَ اَلَّذِي عَلَيْهِمْ وَلَا يُعْطَوْنَ اَلَّذِي لَهُمْ) يبذلون ما عليهم من الحقوق تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ.

ويصبرون إن ظُلموا ولم يعطوا حقهم، أو حصلت الأثرة عليهم.



(٤٣/ ٨٩) عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اَللهِ ﷺ أَنَّ نَبِيَّ اَللهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا عِنْدَ عُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ عَنْهُ اَلنَّاسَ لِأَهْلِ اَلْيَمَنِ إِنِّي لَأَضْرِبُهُمْ بِعَصَايَ حَتَّىٰ يَرْفَضَّ». قَالَ: وَسُئِلَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ عَنْ سَعَةِ اَلْحَوْضِ؟ فَقَالَ: «مِثْلُ مَا بَيْنَ مَقَامِي هَذَا إِلَىٰ عُمَانَ». فَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ؟ فَقَالَ: «أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اَللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنْ اَلْعَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ مِدَادُهُ أَوْ مِدَادُهُمَا مِنْ اَلْجَنَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ وَرِقٍ وَالْآخَرُ مِنْ ذَهَبٍ»(١).

الشرح

(عُقْرِ حَوْضِي) أي: موضع الشارب منه، والمراد بجانبه.

(أَذُودُ) أدفع. (اَلنَّاسَ) عام، والجمع بين هذا الحديث وبين الحديث السابق في الفقراء: إما أن أكثر المهاجرين والأنصار من اليمن، وإما أن ورود المهاجرين قبل ثم أهل اليمن.

قال النووي: وهذه كرامة لأهل اليمن، ففي تقديمهم في الشرب منه مجازاة لهم بحسن صنيعهم وتقدمهم في الإسلام، والأنصار من اليمن، فيُدفع غيرهم حتىٰ يشربوا كما دَفَعوا – في الدنيا – عن النبي ﷺ أعداءه والمكروهات.

ومعنىٰ (يَرْفَضَّ) يسيل عليهم ...، (يَغُتُّ) وفي نسخة: (يَغُثُّ) بالثاء، أي: يصبان فيه دائمًا صبًّا شديداً. (مِدَادُهُ ...) ماؤه الذي يُمد به الحوض. (مِنْ اَلْجَنَّةِ) من نهر الكوثر.

(وَرِقٍ) فضة(٢). والحوض قبل الصراط عند جمهور العلماء وقبل الميزان؛ لأن الناس يخرجون من قبورهم عطاشًا، ثم إذا توجهوا إلىٰ أرض الحساب سقىٰ الله تعالىٰ المؤمنين من الحوض حتىٰ يذهب ظمؤهم، لا سيما مع طول الموقف بعد ذلك.

****

(١) هو في "مسلم" (٢٣٠١).

(٢) "شرح مسلم" (١٥/ ٥١-٥٢).

١٨- باب الْإِيمَانِ بِالْمِيزَانِ

وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِالْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة:٦-٩]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧].

الشرح

الميزان: مفرد موازين، وهو لغة: ما تقدر به الأشياء خفَّة وثِقلاً.

وشرعًا: ما يضعه الله تعالىٰ يوم القيامة لوزن أعمال العباد، وهو ميزان حقيقي له كفتان، توزن به الأعمال وعمالها، وذلك من عدل الله تعالىٰ، وزيادة في إظهار العدل، مع أنه سبحانه قد أحصىٰ كل شيء، وعلم كل شيء.

وكيفية الميزان لا يعلمها إلا الله تعالىٰ، والميزان ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، وأنكره المبتدعة من المعتزلة وغيرهم(١).

وتأوله المعتزلة بالعدل، وهو قول باطل من عدة وجوه(٢).

ظاهر آية القارعة أن الميزان بعد الحساب، فمن ثقلت موازينه كان مصيره إلىٰ الجنة، وفيها يعيش عيشة راضية، وعكسه من خفت موازينه، وهذا هو ما عليه كثير من العلماء أن الميزان بعد الحساب.

---

(١) "شرح اللمعة" (ص ٧٨-٧٩)، "شرح الهراس للواسطية" (ص ٢١٠-٢١١).

(٢) انظر "شرح اللمعة" حاشية (ص ٧٩) بتحقيقنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ...﴾ الآية. أي: الميزان العدل الذي يزن مثاقيل الذر ... وجمعه (موازين) باعتبار تعدد الموزونات، وهو مذهب الجمهور كما ذكره ابن كثير عند هذه الآية[(١)].



(١) وانظر "شرح الواسطية" للعثيمين (٢/ ١٣٩)، "التذكرة" (١/ ٢٩٠)، "زاد المسير" (٥/ ٣٥٤-٣٥٥)، "جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١٤٠-١٤٣)، (١٠٥٣-١٠٥٥).

(٤٤/ ٩٠) عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَ اَلنَّبِيُّ عَلَيْهِ اَلصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنْ يَصْعَدَ بِشَجَرَةٍ فَيَأْتِيهِ بِشَيْءٍ مِنْهَا، فَنَظَرَ أَصْحَابُهُ إِلَىٰ خُمُوسةِ سَاقَيْهِ فَضَحِكُوا مِنْهَا، فَقَالَ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟! لَرِجْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي اَلْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ»[١].

الشرح

(خُموسةِ سَاقَيْهِ) بالخاء والسين تفرد به المصنف، وفي أحمد وغيره بالحاء الشين (خُموشة)، وفي لفظ بالحاء (حَموشة) بحاء مهملة مفتوحة وشين معجمة أي دقة.

في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: دقيق الساقين. والمشهور: أحمش الساقين، أي: نحيل.

(لَرِجْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي اَلْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ) هذا ظاهر في أن العبد يوزن، والحديث الذي بعده ظاهر في أن الأعمال توزن، وفي حديث البطاقة المشهور أن الصحف توزن، والجمع بين ذلك ما قاله الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون هذا كله صحيحًا، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن صحائفها، وتارة توزن عُمالها، والله أعلم. ورجحه ابن أبي العز[٢].

وقيل: الأصل هو وزن الأعمال، وأما وزن العامل فالذي يظهر أن هذا يكون للبعض ممن شاء الله تعالىٰ، والله أعلم[٣].

---

(١) سند المؤلف ضعيف. والحديث صحيح، أخرجه أحمد (١/ ١١٤)، وله شاهد من حديث ابن مسعود عند أحمد (١/ ٤٢٠) وغيره، وصححه الألباني والوادعي.

(٢) "جامع الشروح" (٢/ ١٠٥٥)، "تفسير الأعراف" آية (٨).

(٣) وانظر "شروح الواسطية" للعثيمين (٢/ ١٤٣).

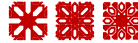
(٤٥/ ٩١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اَللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي اَلْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ اَلرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اَللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اَللهِ اَلْعَظِيمِ»(١).

الشرح

قوله: (ثَقِيلَتَانِ فِي اَلْمِيزَانِ) دل علىٰ أن الأعمال والثواب تنقلب أجسامًا لها وزن.

ونقل الدارمي الإجماع علىٰ هذا في كتابه الرد علىٰ الجهمية.

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالىٰ: فلا يلتفت إلىٰ ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام؛ فإن الله تعالىٰ يقلب الأعراض أجسامًا كما تقدم(٢).



(١) أخرجه البخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) "جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١٠٥٥)، "شرح البخاري" للعثيمين (٨/ ٦٢٦).

١٩- باب فِي الْإِيمَانِ بِالصِّرَاطِ

وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِالصِّرَاطِ وَأَنَّ النَّاسَ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ.

الشرح

لقد أحسن المؤلف في الترتيب، حيث ذكر الحوض، ثم الميزان، ثم الصراط، وهذا قول الأكثر، ورجحه القرطبي في "التذكرة" وابن أبي العز.

والصراط لغة: الطريق المستقيم.

وشرعًا: الجسر الممدود علىٰ جهنم ليعبر الناس عليه إلىٰ الجنة.

وهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع السلف.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، فسره غير واحد من السلف بالمرور علىٰ الصراط(١).

قال الشيخ صالح آل الشيخ - غفر الله تعالىٰ له - بعد ذكر صفات الصراط: وهذه الصفات أنكرها المعتزلة والعقلانيون والفلاسفة وقالوا: هذا لا يعقل أن يكون الطريق من صفته كذا وكذا. اهـ(٢). ولذا أورد في كتب العقيدة.

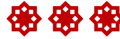
وأجمع الأحاديث لصفة الصراط هو حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بلغني أن الجسر أدق من الشعرة، وأحد من السيف(٣). وله حكم الرفع، وفيه: قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «دحش مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، فيمر المؤمنون كطرف العين،

(١) "شرح اللمعة" (ص ٨٣) ط. عباد الرحمن.

(٢) "الطحاوية مع الجامع" (٢/ ١٠٣١).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٣).

وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل، فناج مسلَّم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم...»، وفي حديث أبي هريرة وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعـًا نحوه، وزادا: « ... ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّىٰ تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّىٰ يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا "، قَالَ: «وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنِ اُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ» وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا...»(١).



(١) أخرجه مسلم (١٩٥).

(٤٦/ ٩٤) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] أَيْنَ يَكُونُ النَّاس يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «عَلَى الصِّرَاطِ»(١).

الشرح

الشاهد منه قوله: (عَلَى الصِّرَاطِ) ففيه إثبات الصراط، وقد جاء هذا الحديث بلفظ: «هم في الظلمة دون الجسر» من حديث ثوبان في "مسلم"(٢).

والجمع بين الحديثين: أن الناس يكونون على الجسر في أدناه من جهة أرض المحشر، وقيل: إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط.

وفيه نظر؛ فإن التبديل يكون قبل الحساب، والقول الأول أصوب، والله على كل شيء قدير.

قال القرطبي في "المفهم"(٣): (دون) بمعنى (فوق)(٤).

* واختلف العلماء في تبديل الأرض ما معناه، على قولين:

١- إن تبدُّلَ الأرضِ عبارة عن تغيير صفاتها، فتمد وتسوى، ولو كان أراد تبدل بغيرها لكانت مخففة (تُبْدَل) بسكون الباء وتخفيف الدال.

٢- أنها تبْدل بغيرها، واستدلوا بالحديث السابق، ورجحه القرطبي في "التذكرة"(٥).

٣- وجمع بعض العلماء بين الأدلة على أنها أولاً تبدَّل صفتها ثم يكون الحساب عليها، و﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة:٤]، ثم بعد الموقف تبدل ذاتها كما قال ﷺ:

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩١).

(٢) (٣١٥).

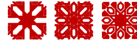
(٣) (١/ ٥٧٤).

(٤) وانظر "البحر الثجاج" (٧/ ٥٣١-٥٣٢).

(٥) (٢/ ٥٠١-٥٠٧).

«تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفؤها الجبار بيده نزلاً لأهل الجنة»[١]. وهو ظاهر كلام ابن خزيمة، وهذا القول أحسنها، جمعًا بين الأدلة.

وهو قريب من القول الأول[٢].



(١) أخرجه مسلم (٢٧٩٢) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) راجع كتب التفسير، "مختصر توحيد ابن خزيمة" (ص ٩٨).

٢٠- باب فِي الْإِيمَانِ بِالشَّفَاعَةِ

وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِالشَّفَاعَةِ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

الشرح

الشفاعة لغة: جعل الوتر شفعًا(١).

وقال ابن الأثير في "النهاية": هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعة؛ فهو شافع وشفيع ...

وفي "القاموس" وغيره: والشفيع وهو الطالب لغيره أن يشفَّع به إلىٰ المطلوب(٢).

وأصل الشفاعة من قولنا: شفع كذا بكذا إذا ضمَّه إليه، وسمي الشافع شافعًا؛ لأنه يضم طلبه ورجاءه إلىٰ طلب المشفوع له.

واصطلاحًا: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة(٣).

وأما الشفاعة إلىٰ الله تعالىٰ فهي دعاء اللهِ تعالىٰ لجلب مصلحة أو دفع مضرة عن الغير.

والشفاعة منها ما هو مجمع عليه عند الأمة، ومنها ما خالف فيه أهل البدع كالمعتزلة والخوارج وغيرهما؛...

---

(١) "شرح اللمعة" (ص ٧٤).

(٢) "الشفاعة" للوادعي (ص ١٣).

(٣) "شرح اللمعة" ص (٧٤).

وتفاصيل ذلك كالتالي:

١- **الشفاعة العظمىٰ**: وهي الشفاعة لأهل الموقف حتىٰ يقضي الله تعالىٰ بينهم، وهذه الشفاعة ثابتة بإجماع المسلمين، وهذا هو المقام المحمود الذي اختص الله به محمداً ﷺ.

ودل عليها حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في الشفاعة، وأدلة أخرىٰ ذكرها شيخنا في كتابه "الشفاعة"[(١)].

٢- **الشفاعة للمؤمنين** من أمته ﷺ بدخول الجنة، قال شيخ الإسلام: وأما الشفاعة الثانية فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

وهذه الشفاعة خاصة بنبينا ﷺ أيضـًا، وعليها أدلة كثيرة، ففي حديث الشفاعة الطويل: «يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فيما سوىٰ ذلك من الأبواب»، وقد ذكر شيخنا رحمه الله تعالىٰ أدلة كثيرة في كتابه[(٢)].

٣- **شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب** بتخفيف العذاب عنه، كما ثبت ذلك في نحو عشرة أحاديث، ومنها حديث العباس وأبي سعيد والنعمان وابن عمر وابن عباس وسهل رضي الله عنهم، وكلها في "الصحيح".

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالىٰ: لما قام به من نصرة النبي ﷺ والدفاع عنه وعما جاء به[(٣)].

---

(١) (ص ٢٥-٦١)، وانظر "الفتاوىٰ" (٦/ ٥٢٨)، "الطحاوية" (ص ٣١٤) ط. ابن تيمية. "شرح الهراس للواسطية" (ص ٢٢١).

(٢) الشفاعة (ص ٦٣-٧٠).

(٣) "شرح اللمعة" (ص ٧٦)، وانظر "الشفاعة" لشيخنا (ص ١٤٣-١٤٨)، "شرح عقيدة الصابوني" للشيخ ربيع (ص ١٤٨).

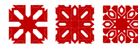
٤- الشفاعة لأهل الكبائر، وهي عامة، وحظ نبينا ﷺ أوفر حظ، وستأتي في الباب الذي بعد هذا.

٥- وذكر أيضـًا: الشفاعة لسبعين ألفـًا أن يدخلوا الجنة بغير حساب، والتحقيق أن هذه داخلة في الثانية كما سبق في الحديث(١).

٦- وذُكر أيضـًا: الشفاعة في رفع درجات من يدخل الجنة فوق درجاتهم، وقد وافق علىٰ هذه الشفاعة المعتزلة والخوارج، ودليل هذه الشفاعة: الإجماع، ولا بأس بالاستدلال بقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور:٢١]. وهكذا قول النبي ﷺ في الوالد: «ترفع درجته في الجنة، فيقول: يا رب، أَنَّىٰ هذا؟! فيقالك هذا باستغفار ولدك لك». وهو حديث صحيح.

وهكذا دعاء النبي ﷺ لأبي سلمة: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين»(٢).

٧- الشفاعة لمن أمر به إلىٰ النار، فيشفع الشافعون لبعضهم أن لا يدخلوها، ومن ذلك شفاعة الأفراط، وشفاعة القرآن والصيام والرسل وغيرهم، والحظ الأكبر من ذلك لنبينا محمد ﷺ(٣).



(١) وانظر "الشفاعة" (ص ١٢٩-١٣٩).

(٢) وانظر "الشفاعة" (ص ١٤١-١٤٢)، "جامع شروح الطحاوية" (١/ ٤٨٢-٤٨٣)، وذكرها شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ في "الفتاوىٰ" (١/ ٣١٤)، وابن القيم في "تهذيب السنن" (٧/ ١٣٣-١٣٤) ط. المعرفة.

(٣) انظر "الشفاعة" (ص ١٢٥، ٢٣١، ٢٤١).

(٤٧/ ٩٧) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ صَلَّىٰ اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (شَفَاعَتِي لِأَهْلِ اَلْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي)[1].

(٤٨/ ٩٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ صَلَّىٰ اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ اَلْأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ) [2].

(٤٩/ ٩٩) عَنْ صِلَةَ بْنِ زُفَرَ قَالَ: سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ يَقُولُ: يَجْمَعُ اَللهُ اَلنَّاسَ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ حُفَاةً عُرَاةً كَمَا خُلِقُوا يُسْمِعُهُمْ اَلدَّاعِي ويُنْفُذُهُمْ اَلْبَصَرُ، وَلَا تَتَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَأَوَّلُ مَنْ يُدْعَىٰ مُحَمَّدٌ، يَا مُحَمَّدُ فَيَقُولُ: (لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَمِنْكَ وَإِلَيْكَ، وَلَا مَلْجَأَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، وَعَلَىٰ عَرْشِكَ اِسْتَوَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ اَلْبَيْتِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اِشْفَعْ" قَالَ فَذَلِكَ اَلْمَقَامُ اَلْمَحْمُودُ اَلَّذِي وَعَدَهُ اَللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[3].

الشرح

٤٧- الشاهد منه: إثبات الشفاعة، والمراد بالكبائر هنا ما دون الشرك الأكبر.

كما ذكر ابن خزيمة وغيره: أن معنىٰ قوله صلىٰ الله عليه وسلم: (شَفَاعَتِي لِأَهْلِ اَلْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي) إنما أراد أمته الذين أجابوه وآمنوا به، وتابوا من الشرك.

ومن العجائب أن بعض الكذابين حرَّف الحديث إلىٰ: (ليست شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي).

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٣٥) وغيره، وصححه الألباني، وله شواهد كثيرة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) زاد المؤلف (ولا فخر) وليست في مسلم، وزيادتها في هذا الحديث فيها نظر، وشذوذها أقرب.

(٣) حسن موقوف.

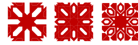
٤٨- قوله: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ) السيد الذي يفوق قومه في الخير والسؤدد، فهو سيد ولد آدم كلهم حتىٰ الرسل، ويظهر هذا السؤدد يوم القيامة أكثر؛ حيث يقوم بالشفاعة العظمىٰ، كما جاء مصرحًا في حديث أبي هريرة الطويل في الشفاعة.

وإخباره بذلك من باب التحدث بنعمة الله تعالىٰ، ولذلك قال: (ولا فخر) كما في حديث أبي سعيد في السنن[١].

قوله: (وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ اَلْأَرْضُ) أي: القبر حين البعث.

قوله: (وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ) أول من يطلب الشفاعة من الله تعالىٰ، وأول من تقبل شفاعته.

٤٩- أوله قد صح في عدة أحاديث، وباقية لا دليل عليه، بل ذكر الدعاء فيه نظر؛ لتصريح النبي صلىٰ الله عليه وسلم بأن الذي يدعو به يوم القيامة لا يعلمه الآن، كما في حديث أبي هريرة وأنس في الشفاعة وعليه فهذا من اجتهاد حذيفة وهو مرجوح، أو يكون من الاسرائيليات.



(١) صحيح: رواه الترمذي (٣١٤٨) وغيره وصححه الألباني والأرنؤوط.

٢١- باب في الْإيمَانِ بإِخْرَاجِ قَوْمٍ مِنَ النَّار

وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اَللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ نَاسًا اَلْجَنَّةَ مِنْ أَهْلِ اَلتَّوْحِيدِ بَعْدَمَا مَسَّتْهُمُ اَلنَّارُ بِرَحْمَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ اِسْمُهُ، وَبِشَفَاعَةِ اَلشَّافِعِينَ. وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾ [الحجر:٢]، وَقَالَ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾ [المدثر:٤٨].

الشرح

هذه الشفاعة ضاق بها ذرعًا التكفيريون: الخوارج والمعتزلة وما تفرع منهما من الحزبيات والفرق الضالة؛ كالرافضة وكذا المرجئة.

قال الإمام الآجري رحمه الله تعالىٰ: اعلموا – رحمكم الله – أن المنكِر للشفاعة يزعم أن من دخل النار فليس بخارج منها، وهذا مذهب المعتزلة، يكذبون بها وبأشياء سنذكرها إن شاء الله تعالىٰ مما لها أصل في كتاب الله عز وجل، وسنن رسول الله ﷺ، وسنن الصحابة رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان، وقول فقهاء الأمة، فالمعتزلة يخالفون هذا كله، لا يلتفتون إلىٰ سنن الرسول ﷺ ولا إلىٰ سنن الصحابة رضي الله عنهم، إنما يعارضون بمتشابه القرآن، وبما أراهم العقل عندهم، وليس هذا طريق المسلمين، إنما هذا طريق من زاغ قلبه عن طريق الحق، وقد لعب به الشيطان، وقد حذرنا الله مَن هذا صفته، وحذرنا النبي ﷺ، وحذرناهم أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا. اهـ(١).

وهذه الشفاعة أجمع عليها أهل السنة، وهذه الشفاعة تشارك نبينا ﷺ فيها الملائكةُ والمؤمنون والنبيون، وتتكرر منهم الشفاعة للموحدين الذين دخلوا النار حتىٰ يُخرج

(١) "الشريعة" (ص ٣٤٦-٣٤٧)، (ص ٣٥٠-٣٥١)، وقد ذكر .....

آخرَهم ربُّنا جل وعلا كما في الحديث الآتي(١).

وقوله تعالىٰ: (﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨])، هؤلاء غير المسلمين، أما الموحدون فإنها تنفعهم بإذن الله تعالىٰ، ولذلك كانت شروط الشفاعة:

١- رضا الله تعالىٰ عن الشافع والمشفوع له.

٢- إذن الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].



(١) وانظر "جامع شروح الطحاوية" (١/ ٤٧٣-٤٩٨)، والمراجع السابقة.

(٥٠/ ١٠٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: يُوضَعُ اَلصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ عَلَىٰ حَسَكٍ كَحَسَكِ اَلسَّعْدَانِ، ثُمَّ يَسْتَجِيزُ اَلنَّاسُ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوجٌ بِهِ، ثُمَّ نَاجٍ وَمُحْتَبَسٌ وَمَنْكُوسٌ فِيهَا، فَإِذَا فَرَغَ اَللهُ مِنَ اَلْقَضَاءِ بَيْنَ اَلْعِبَادِ يَفْقِدُ اَلْمُؤْمِنُونَ رِجَالًا كَانُوا فِي اَلدُّنْيَا يُصَلُّونَ صَلَاتَهُمْ وَيُزَكُّونَ زَكَاتَهُمْ وَيَصُومُونَ صِيَامَهُمْ وَيَحُجُّونَ حَجَّهُمْ وَيَغْزُونَ غَزْوَهُمْ فَيَقُولُونَ: أَيْ رَبَّنَا عِبَادٌ مِنْ عِبَادِكَ كَانُوا مَعَنَا فِي اَلدُّنْيَا يُصَلُّونَ صَلَاتَنَا، وَيُزَكُّونَ زَكَاتَنَا، وَيَصُومُونَ صِيَامَنَا، وَيَغْزُونَ غَزْوَنَا لَا نَرَاهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: اِذْهَبُوا إِلَىٰ اَلنَّارِ فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِيهَا فَأَخْرِجُوهُ قَالَ: فَيَجِدُونَهُمْ قَدْ أَخَذَتْهُمُ اَلنَّارُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ إِلَىٰ قَدَمَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ إِلَىٰ أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ إِلَىٰ أُزْرَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ وَلَمْ تَغْشَ اَلْوَجْهَ، قَالَ فَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْهَا فَيَطْرَحُونَهُمْ فِي مَاءِ اَلْحَيَاةِ، قِيلَ: يَا نَبِيَّ اَللهِ وَمَا مَاءُ اَلْحَيَاةِ؟ قَالَ: غُسْلُ أَهْلِ اَلْجَنَّةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ اَلزَّرْعَةُ غُثَاءَ اَلسَّيْلِ، ثُمَّ يَشْفَعُ اَلْأَنْبِيَاءُ فِي كُلِّ مَنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ مُخْلِصًا فَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْهَا، قَالَ: ثُمَّ يَتَحَنَّنُ اَللهُ بِرَحْمَتِهِ عَلَىٰ مَنْ فِيهَا فَمَا يَتْرُكُ فِيهَا عَبْدًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا أَخْرَجَهُ مِنْهَا».

الشرح

قوله: (يَسْتَجِيزُ اَلنَّاسُ) يؤمرون بالجواز.

(اَلْقَضَاء بَيْنَ اَلْعِبَادِ) المراد به هنا: القصاص علىٰ القنطرة بين المؤمنين.

(غُثَاء اَلسَّيْلِ) بجانب الماء.

قوله: (ثُمَّ يَشْفَعُ اَلْأَنْبِيَاءُ) ثم هنا بمعنىٰ الواو، وليست للترتيب؛ لأن الأنبياء أول من يشفع كما في حديث: «أنا أول شافع ...»، وأدلة أخرىٰ.

قوله: (ثُمَّ يَتَحَنَّنُ اَللهُ) وعند ابن خزيمة: «يتحنن» بنونين، ومعناه: يعطف عليهم، أي: يرحمهم ويخرجهم من النار.

و(يَتَحَتَّنُ) بالتاء: من التتابع، وكأن المعنىٰ: يخرجهم بعد إخوانهم مباشرة، والله أعلم.

قوله: (غُسْلُ أَهْلِ اَلْجَنَّةِ)[(١)] يحمل معناه علىٰ أنهم الموحدون الذين يخرجون من النار يغتسلون فيه، كما صرحت بذلك روايات أخرىٰ، والله أعلم.



(١) حسن: أخرجه ابن خزيمة (٤٩٣)، وابن جرير (١٦/ ١٢٥)، وغيرهم من طرق عن ابن إسحاق به.

٢٢- باب فِي الْإِيمَانِ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا

وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام:١٥٨].

الشرح

في هذا الباب وما بعده ذكر المؤلف أشراط الساعة:

طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، ونزول عيسىٰ، وهذا مما هو متفق عليه عند أهل السنة، يؤمنون بذلك وغيره من المغيبات التي جاء ذكرها في الكتاب والسنة، وأما أهل الأهواء فنمهم من يتأولها؛ لأنها لا يدل عليها العقل زعموا، ومنهم دون ذلك.

وأشراط: جمع شرط، والشرط هو العلامة التي تميز الشيء عن غيره.

وأشراط الساعة: المقصود بها علاماتها التي تدل علىٰ قرب قيامها، وهي علىٰ أقسام: صغرىٰ، وكبرىٰ.

فالصغرىٰ: هي ما دون العشر الكبرىٰ من علامات الساعة التي دلَّ الدليل الصحيح علىٰ أنها من أشراط الساعة.

والكبرىٰ: هي العشر المذكورة في الحديث: عن حذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: اطلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «إنها لن تقوم حتىٰ ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسىٰ بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلىٰ محشرهم»[١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠١)، وأكبرها الشمس. "جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١٣٠٠-١٣١٧).

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: ونؤمن بأشراط الساعة: من خروج الدجال، ونزول عيسىٰ عليه السلام من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وبخروج دابة الأرض من موضعها ... اهـ



(٥١/ ١٠٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنُوا كُلُّهُمْ، فَذَلِكَ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ نَفْسٌ إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا»(١).

الشرح

الشاهد منه: (حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).

قوله: (رَآهَا النَّاسُ) مسلمهم وكافرهم.

(آمَنُوا كُلُّهُمْ) آمن الكافر وتاب العاصي المسلم، وكل ذلك مردود غير مقبول منهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨] يفسرها هذا الحديث، وأن المراد: طلوع الشمس من مغربها عند أكثر المفسرين.

وقوله: (لَا يَنْفَعُ نَفْسٌ إِيمَانُهَا ... إلخ) قال ابن جرير رحمه الله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] فإنه يعني: أو عملت في إيمانها بالله خيراً من عمل صالح تصدق قبله وتحققه من قبل طلوع الشمس من مغربها؛ لا ينفع كافراً لم يكن آمن قبل طلوعها؛ لأنها حالة لا تمتنع نفس من الإقرار بالله لعظيم الهول(٢).



(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٦)، ومسلم (١٥٧) نحوه.

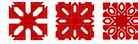
(٢) (٨/ ٧٦)، "البداية والنهاية" لابن كثير (١/ ١٦٥-١٦٨) ط. المعرفة.

(٥٢/ ١٠٥) عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اَللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ باب اَلتَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مِنْ قِبَلِ اَلْمَغْرِبِ أَوْ أَنَّ بِالْمَغْرِبِ باب اَلتَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ لَا يَزَالُ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ مَا لَمْ تَطْلُعْ اَلشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ أُغْلِقَ»(١).

الشرح

(باب اَلتَّوْبَةِ) سمي باب التوبة؛ لأن الله تعالىٰ فتحه للتوبة، أي: كما أن هذا الباب لا يُغلق إلا بطلوع الشمس منه كذلك التوبة لا ترد إلا إذا طلعت الشمس منه، وهو باب حقيقي لا يعلم كيفيته إلا الله تعالىٰ كسائر المغيبات.

والشاهد من الحديث: طلوع الشمس منه.



(١) حسن. أخرجه أحمد (٤/ ٢٤١)، والترمذي (٣٥٣٦، ٤٦٠٩) نحوه، وغيرهما، وصححه الشيخان، ولفظ الترمذي: «سبعين عامًا»، وجاء بلفظ: «أربعين عامًا»، والأول أصوب، ولفظ: «خمسمائة عام» عند المؤلف، وسند المؤلف ضعيف، وقد خالف فيه الثقات، والعلة فيه شيخ المؤلف أو شيخ شيخه.

٢٣- باب اَلْإِيمَانِ بِخُرُوجِ اَلدَّجَّالِ

وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِخُرُوجِ اَلدَّجَّالِ أَعَاذَنَا اَللهُ وَإِيَّاكَ مِنْ فِتْنَتِهِ.

الشرح

الدجال: رجل مموه يخرج في آخر الزمان يدَّعي الربوبية، وهو من ذرية آدم، جاء وصف بأنه أعور العين اليمنىٰ، مكتوب بين عينيه (ك ف ر) أي: كافر، وخروجه ثابت بالسنة والإجماع، لا ينكره إلا شرذمة من الخوارج ومن أهل البدع ومن الملاحدة(١).

وهو موجود الآن علىٰ ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة، ومنها قصة تميم الداري أنه وجده في جزيرة.

قال ابن قدامة رحمه الله تعالىٰ في اللمعة: ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ وصحَّ به النقل فيما شاهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع علىٰ حقيقة معناه، مثل حديث الإسراء ... ومن ذلك أشراط الساعة، مثل خروج الدجال، ونزول عيسىٰ بن مريم عليه السلام فيقتله، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وأشباه ذلك مما صح به النقل. اهـ.

وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالىٰ: خروج الدجال هو أول العلامات الكبرىٰ، ويدعي الربوبية، ومعه خوارق شيطانية تفتن الناس(٢).

ويطوف الأرض في أربعين يومـًا، ومعه جنة ونار وأمور عظام، فهو أكبر فتنة وجدت علىٰ وجه الأرض.

---

(١) وانظر "شرح اللمعة" ص (٦٥).

(٢) "شروح الطحاوية" (ص ١٣٠٠).

(٥٣/ ١٠٨) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اَللهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا اَلدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمْ اَلسُّورَةَ مِنْ اَلْقُرْآنِ يَقُولُ: «اَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ اَلْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ اَلْمَسِيحِ اَلدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ اَلْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»(١).

(٥٤/ ١٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنْ اَلدَّجَّالِ حَدِيثًا لَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَبِيٌّ قَبْلِي؟ إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ مِثْلُ اَلْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَالَّتِي يَقُولُ إِنَّهَا اَلْجَنَّةُ فَهِيَ اَلنَّارُ، وَالَّتِي يَقُولُ إِنَّهَا اَلنَّارُ هِيَ اَلْجَنَّةُ، وَإِنِّي أُنْذِرُكُمْ بِهِ كَمَا أَنْذَرَ بِهِ نُوحٌ قَوْمَهُ»(٢).

(٥٥/ ١١٠) عَنْ اِبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اَللهِ ﷺ ذَكَرَ اَلْمَسِيحَ اَلدَّجَّالَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ اَلنَّاسِ، فَقَالَ: «إِنَّ اَللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَإِنَّ اَلْمَسِيحَ اَلدَّجَّالَ أَعْوَرُ اَلْعَيْنِ اَلْيُمْنَىٰ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِئَةٌ»(٣).

الشرح

(أَعُوذُ) ألجأ وأعتصم.

(فِتْنَةِ اَلْمَحْيَا) فتنة الحياة: ما يعرض للمرء مدة حياته من الافتتان بالدنيا وشهواتها وشبهاتها.

(وَالْمَمَاتِ) فتنة القبر.

قوله: (كَمَا أَنْذَرَ بِهِ نُوحٌ ..) وهكذا الأنبياء بعد نوح أنذروا قومهم منه، وهذا يدل علىٰ عظيم فتنته وطول زمن وجوده، والله أعلم.

قوله: (طَافِئَة) أي: لا نور فيها. وبالياء: (طافية) مرتفعة ناتئة.

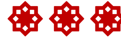
---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٨)، ومسلم (٢٩٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٣٩)، ومسلم (الفتن/ ١٠٠).

قال القاضي رحمه الله تعالىٰ: في هذه الأحاديث حجة لأهل السنة في صحة وجود الدجال، وأنه شخص معين يبتلي الله به العباد، ويقدِّره علىٰ أشياء كإحياء الميت الذي يقتله، وظهور الخصب والأنهار، والجنة والنار، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء فتمطر والأرض فتنبت، وكل ذلك بمشيئة الله تعالىٰ، ثم يعجزه؛ فلا يقدر علىٰ قتل الرجل ولا غيره، ثم يبطل أمره، ويقتله ابن مريم، وقد خالف في ذلك بعض الخوارج والمعتزلة والجهمية، فأنكروا وجوده، وردوا الأحاديث الصحيحة. اهـ وهكذا مجموعة من العقلانيين(١).



(١) انظر "قصة الدجال" للألباني (١١-١٥).

(٥٦/ ١١١) عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ لِلنَّاسِ وَهُوَ يُحَذِّرُهُمْ فِتْنَةَ الدَّجَّالِ: «إِنَّهُ لَنْ يَرَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّىٰ يَمُوتَ، وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ مَنْ كَرِهَ عَمَلَهُ»[(١)].

الشرح

هذا الحديث رد علىٰ الصوفية الذين يزعمون أنهم يرون الله تعالىٰ في الدنيا.

قوله: (مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ) علىٰ ظاهره، يكتب بين العنين علىٰ أسفل الجَبين.

قوله: (كَافِرٌ) وفي كثير من الكتب هكذا: (ك ف ر) مقطعة[(٢)].

والصحيح الذي عليه المحققون أن هذه الكتابة علىٰ ظاهرها، وأنها كتابة حقيقية جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله، ويظهرها الله تعالىٰ لكل مسلم كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك ... ومنهم من قال: هي مجاز، وهذا مذهب ضعيف.

قوله: (يَقْرَؤُهُ مَنْ كَرِهَ عَمَلَهُ) وفي حديث أنس[(٣)]: «يقرؤها كل مسلم»، وفي حديث حذيفة[(٤)]: «كل مؤمن كاتب وغير كاتب».

فالمسلم الذي لا يكره عمله، بل يعجبه ما يظهره الدجال من الكنوز والشهوات يفتن به، ويرتد بسبب الدجال خلق كثير.

اللهم يا ولي الإسلام والمسلمين ثبتنا علىٰ الدين الحق حتىٰ نلقاك، وأعذنا من فتنة الدجال وسائر الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن قبل حديث (٢٩٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٣) عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٣٣).

(٤) (٢٩٣٤)

٢٤- باب فِي اَلْإِيمَانِ بِنُزُولِ عِيسَى وَقَتْلِه اَلدَّجَّالَ

وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِنُزُولِ عِيسَىٰ وَقَتْلِهِ اَلدَّجَّالَ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٦١] يَعْنِي عِيسَىٰ. وَقَالَ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ [النساء:١٥٩] يَعْنِي: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَىٰ.

الشرح

نزول عيسىٰ عليه السلام من السماء إلىٰ الأرض ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، ولم ينكره إلا شرذمة من المبتدعة والعقلانية، قال النبي ﷺ: «والله لينزلن فيكم عيسىٰ بن مريم حكمًا عدلاً»، متفق عليه.

ونزوله يكون بعد خروج الدجال بأربعين يومًا[١].

ونزول عيسىٰ من السماء إلىٰ الأرض في آخر الزمان متواتر، ومن أنكر ذلك فهو كافر، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٦١]، وفي قراءة: (لعَلَم) أي: علامة علىٰ قرب الساعة، وقال الله سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء:١٥٩]، وهذا في آخر الزمان؛ لأنه حي في السماء، ولا يموت إلا بعد إنهاء المهمة الموكلة إليه، فيموت – بعدها – فيُدفن في الأرض بعد أن يقتل الدجال والخنزير، ويضع الجزية ويحكم بالإسلام[٢].



(١) انظر "شرح اللمعة" ص (٦٦)، "الطحاوية" (١٣٠٥-١٣٠٩).

(٢) قاله الفوزان. "جامع شروح الطحاوية" ص (١٣٠٨).

(٥٧/ ١١٣) عَنْ اَلْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «اَلْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَأَنَا أَوْلَىٰ اَلنَّاسِ بِعِيسَىٰ اِبْنِ مَرْيَمَ، إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نبيٌ وَإِنَّهُ نَازِلٌ لَا مَحَالَةَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعُ اَلْخَلْقِ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ إِلَىٰ اَلْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبْطُ اَلرَّأْسِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ مَاءً، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيَكْسِرُ اَلصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ اَلْخِنْزِيرَ، وَيُقَاتِلُ اَلنَّاسَ عَلَىٰ اَلْإِسْلَامِ، فَيُهْلِكَ اَللهُ فِي زَمَانِهِ اَلْمِلَلَ كُلَّهَا غَيْرَ اَلْإِسْلَامِ، وَحَتَّىٰ تَقَعَ اَلْأَمَنَةُ فِي اَلْأَرْضِ، وَحَتَّىٰ يَرْتَعَ اَلْأَسَدُ مَعَ اَلْإِبِلِ، وَالنُّمُورُ مَعَ اَلْبَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ اَلْغَنَمِ، وَيَلْعَبَ اَلْغِلْمَانُ بِالْحَيَّاتِ لَا يَضُرُّ بَعْضُهُم بَعْضًا»(١).

قَالَ مُحَمَّدٌ: اَلثِّيَابُ اَلْمُمَصَّرَةُ: هِيَ اَلَّتِي فِيهَا صُفْرَةٌ خَفِيفَةٌ.

الشرح

(إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ) فسرها بالجملة التي بعدها، والمعنىٰ: إيمانهم واصل دعوتهم واحد، وهو الدعوة إلىٰ توحيد الله تعالىٰ وطاعته والنهي عن الشرك بالله ومعصيته، وأما شرائعهم في الأحكام ونحوها ففيها شيء من التغاير، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

قوله: (سَبْطُ اَلرَّأْسِ) الشعر المرسل ليس بجعد.

(اَلْأَمَنَةُ) الأمان.



---

(١) مرسل، ولكنه صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٦) وغيره بسند صحيح. وصححه الحافظ والألباني، وفيه زيادة: «فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفىٰ، فيصلي عليه المسلمون»، وأكثر ألفاظ حديث الحسن في الصحيحين عن جماعة من الصحابة.

(٥٨/ ١١٤) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اَللهُ عَنْهَا عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ فِي الدَّجالِ: «إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا حَيٌّ أَكْفِيكُمُوهُ، وَإِنْ أَمُتْ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ مَعَهُ يَهُودُ أَصْبَهَانَ، فَيَسِيرُ حَتَّىٰ يَنْزِلَ بِنَاحِيَةِ اَلْمَدِينَةِ، وَلَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، عَلَىٰ كُلِّ باب مَلَكَانِ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ شِرَارُ أَهْلِهَا فَيَنْطَلِقَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ لُدٍّ فَيَنْزِل عِيسَىٰ فَيَقْتُلَهُ ثُمَّ يَمْكُثُ عِيسَىٰ فِي اَلْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ إِمَامًا عَدْلًا وَحَكَمًا مُقْسِطًا»(١).

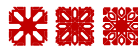
الشرح

(يَخْرُجُ مَعَهُ يَهُودُ أَصْبَهَانَ) أي: يتبعونه بعد خروجه كما في "مسلم" من حديث أنس رضي الله عنه(٢).

قوله: (شِرَارُ أَهْلِهَا) أي: المنافقون، كما في "الصحيح".

قوله: (لُدٍّ) أي: باب لد: قرية قريبة من بيت المقدس، وقيل: في دمشق.

وهذه الأدلة وغيرها مما تواتر في نزول عيسىٰ عليه السلام وقتله الدجال حجة لأهل السنة، وقاصمة لظهور المبتدعة الذين يردون من الأدلة ما لا يوافق عقولهم.



(١) حسن لغيره. في سنده مجهول، إلا أن جميع ألفاظه في "الصحيح" في حديث النواس وأبي هريرة رضي الله عنه وغيرهما، واللفظة الأخيرة: «ثم يمكث في الأرض أربعين سنة» عند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه بسند صحيح، كما سبق آنفًا، فالحديث حسن لغيره.

(٢) (٢٩٤٤).

٢٥- باب فِي الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنَّ اَلْمَقَادِيرَ كُلَّهَا خَيْرَهَا وَشَرَّهَا حُلْوَهَا وَمُرَّهَا مِنَ اَللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ خَلَقَ اَلْخَلْقَ وَقَدْ عَلِمَ مَا يَعْمَلُونَ وَمَا إِلَيْهِ يَصِيرُونَ، فَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَهُوَ أَصْدَقُ اَلْقَائِلِينَ -: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وَقَالَ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، وَقَالَ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر:٤٩]، وَقَالَ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١]، وَقَالَ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، وَقَالَ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦﴾ [يونس:٩٦]، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة:١٣]، وَقَالَ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧]، مِثْلُ هَذَا فِي اَلْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

الشرح

الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان، لا يتم إلا به، ولا يصح إلا بالتصديق بالقدر.

والقدر: مصدر قدَّرت الشيء: إذا أحطت بمقداره.

وشرعـًا: أن الله تعالىٰ علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فلا يحدث شيء إلا وقد علمه وقدَّره وأراده(١).

* وهو أربع مراتب:

الأولىٰ: الإيمان بعلم الله تعالىٰ بكل شيء، ومن ذلك علمه بأعمال العباد قبل أن يعملوها.

---

(١) "الفتح" (١/ ١٥٧)، "الإرشاد" للفوزان ص (٣٩٩)، "الفتاوىٰ" (١٦/ ٣٠٦).

الثانية: الإيمان بأن الله تعالىٰ كتب كل ما هو كائن في اللوح المحفوظ.

الثالثة: الإيمان بمشيئة الله تعالىٰ الشاملة لكل حادث وقدرته التامة عليه.

الرابعة: الإيمان بإيجاد الله تعالىٰ لكل المخلوقات، وأنه الخالق وحده، وما سواه مخلوق.

ومن أدلة المرتبة الأولىٰ والثانية: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج:٧٠].

ومن أدلة المرتبة الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:١٤].

ومن أدلة المرتبة الرابعة: قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر:٦٢].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

قال المقدسي رحمه الله تعالىٰ(١): وأجمع أئمة السلف من أهل الإسلام علىٰ الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، قليله وكثيره، بقضاء الله تعالىٰ وقدره، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يجري خير وشر إلا بمشيئته، خلق من شاء للسعادة، واستعملهم بها فضلاً، وخلق من شاء للشقاء واستعمله به عدلاً، فهو سر استأثر به، وعلم حجبه عن خلقه، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣]. اهـ المراد.

قوله: (اَلْمَقَادِيرَ كُلَّهَا خَيْرَهَا وَشَرَّهَا) أما القدر والتقدير الذي هو فعل أو وصف الله تعالىٰ فهو خير لا شر فيه بوجه من الوجوه، فإن علم الله تعالىٰ وكتابته ومشيئته وخلقه، وذلك خير محض، وكمال من كل وجه، فالشر ليس إلىٰ الرب بوجه من الوجوه، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا صفاته، ولا في أفعاله، وهو معنىٰ قوله ﷺ: «والشر ليس إليك» لا يُنسب إليك.

---

(١) في "الاقتصاد في الاعتقاد" ص (١٥١).

وأما المقادير التي بمعنىٰ المقدورات المخلوقات ففيها الخير والشر، فالشر يدخل في مخلوقاته ومفعولاته، فالشر في المقدور لا في القدر، وفي المقضي لا في القضاء.

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: فالشر في بعض مخلوقاته لا في فعله سبحانه.

وقال: والحاصل أن الله تعالىٰ لا ينسب إليه الشر؛ لأنه إن أريد بالشر وضع الشيء في غير موضعه فهو الظلم، ومقابله العدل، والله تعالىٰ منزَّهٌ عن الظلم، وإن أُريد به الأذىٰ اللاحق بالمحل بسبب ذنب ارتكبه فإيجاد الله تعالىٰ للعقوبة علىٰ ذنب لا يعد شرًّا له، بل ذلك عدلٌ منه تعالىٰ، وإن أُريد به عدم الخير وأسبابه الموصلة إليه فالعدم ليس فعلاً حتىٰ ينسب إلىٰ الله، وليس للعبد علىٰ الله سبحانه أن يوفقه، فهذا فضل الله تعالىٰ يؤتيه من يشاء، ومنع الفضل ليس بظلم ولا شر. اهـ

وهذا الشر في المقدور – المخلوق – ليس شرًّا محضًا، بل هو خير من وجه آخر أو لمخلوق آخر.

مثال: القصاص والحدود، شرٌّ بالنسبة لمن أقيمت عليه باعتبار الأذىٰ النازل به، وخير لأنها كفارة وتأمين لسائر المسلمين(١).

قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] الأمر المتضمن للشرائع والنبوات، والخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية(٢).

قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨] أي: وكان أمره كائنًا لا محالة وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن(٣).

---

(١) انظر "الإيمان بالقضاء والقدر" للحمد ص (٩٥-٩٨).

(٢) "السعدي".

(٣) "ابن كثير".

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩] هذه الآية فيها إثبات قدر الله تعالىٰ السابق لخلقه، وهو تقدير الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وفيها رد علىٰ القدرية(١).

قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١]، فنحن تحت مشيئته وقدره، فلن يصيبنا إلا ما قدَّره وأجراه في اللوح المحفوظ(٢).

قوله تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] أي: نبتليكم بالشدة والرخاء والصحة والمرض، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدىٰ والضلال.

﴿فِتْنَةً﴾ امتحانـًا لكم، ووجه دخول هذه الآية في القدر أن الله تعالىٰ قدَّر الخير والشر.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤] يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، يقلب القلوب حيث يشاء.

وجه الدلالة لباب القدر: أن الله تعالىٰ يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فالهدىٰ والضلال بيد الله تعالىٰ. – وسيأتي بيانه في مسألة خلق أفعال العباد –.

قوله تعالىٰ: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يونس:٩٦]) هذه الآية فيها إثبات القدر الكوني، وأنَّ قدر الله تعالىٰ كونـًا أنه لا يؤمن فهو صائر إلىٰ ما قضاه الله وقدره، وما ظلمهم الله تعالىٰ ولكن ظلموا أنفسهم بردِّهم للحق، ولو علم الله تعالىٰ فيهم خيراً لأسمعهم.

---

(١) "ابن كثير".

(٢) "ابن كثير، "السعدي".

قوله تعالىٰ: (﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة:١٣]) المشيئة بمعنىٰ: القدر الكوني والإرادة الكونية – وسيأتي توضيحه قريبًا – وهذه الآية كالتي قبلها.

قوله تعالىٰ: (﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل:٣٧]) هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف:١٨٦]، فمن أضله الله تعالىٰ لا أحد يقدر علىٰ هدايته، ففيه إثبات أن الله تعالىٰ قدَّر الهدىٰ والضلال، يهدي من يشاء فضلاً، ويضل من يشاء عدلاً.

قال الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله، وأصل القدر سرُّ الله تعالىٰ في خلقه، لم يطلع علىٰ ذلك ملك مقرَّب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسُلَّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من كل ذلك نظراً وفِكراً، ووسوسة؛ فإن الله طوىٰ علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالىٰ في كتابه: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٣] ... اهـ

* مسألة: الفرق بين المشيئة والإرادة:

المشيئة مرادفة للإرادة الكونية، وهذه الإرادة لا يخرج عن مرادها شيء، فالكافر .... والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء؛ فالطاعات والمعاصي كلها بمشيئة الرب وإرادته الكونية.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد:١١].

أما الإرادة الشرعية فليست بمعنىٰ المشيئة، بل هي تتضمن محبة الرب ورضاه، قال تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥].

* والفرق بين الإرادتين من وجوه:

١- الإرادة الكونية – أو ما أراده الله تعالىٰ كونـًا – قد يحبه ويرضاه، كالتوحيد والهدىٰ، وقد لا يحبه ولا يرضاه كالكفر والضلال.

أما ما أراده شرعـًا فهو سبحانه يحبه ويرضاه كالتوحيد والهدىٰ.

٢- الإرادة الكونية بمعنىٰ المشيئة. والإرادة الشرعية مرادفة للمحبة.

٣- الإرادة الكونية قد تكون مقصودة لغيرها: كخلق إبليس مثلاً وسائر الشرور لتحصل بسببها محاب كثيرة، كالتوبة والمجاهدة والاستغفار.

وأما الشرعية فمقصودة لذاتها، فالله تعالىٰ أراد الطاعة وأحبها وشرعها ورضيها لذاتها.

٤- الإرادة الكونية لابد من وقوعها، فالله تعالىٰ إذا شاء شيئًا وقع ولابد، كإحياء أحد أو إماتته أو غير ذلك.

وأما الشرعية فلا يلزم وقوعها، فقد تقع وقد لا تقع، كالإسلام، فمن الناس من أسلم، ومنهم من لم يسلم ...

٥- الإرادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما يحبه الله تعالىٰ وبما لا يحبه، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق.

والشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به واقعـًا كان أو غير واقع، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به.

مثال: إيمان أبي بكر: أراده الله تعالىٰ كونـًا وشرعـًا.

وإيمان أبي جهل: أراده الله تعالىٰ شرعـًا، ولم يُرده كونـًا.

وكفر أبي جهل: أراده الله تعالىٰ كونـًا، ولم يُرده شرعـًا.

وكفر أبي بكر بعد إسلامه: لم يرده الله تعالىٰ كونـًا ولا شرعـًا.

*** مسألة: خلق أفعال العباد:**

أفعال العباد داخلة في عموم خلقه، ولا يخرج شيء من عموم قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات:٩٦]، أي: وخلق الذي تعملون.

قال الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: وأفعال العباد خلق الله، وكسب من العباد.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: الأعمال والأقوال والطاعات هي من العبد بمعنىٰ أنها قائمة بالعبد، وحاصلة بمشيئته وقدرته، وهو المتصف بها والمتحرك بها الذي يعود حكمها عليه، وهي من الله بمعنىٰ أنه خلقها قائمة بالعبد، وجعلها عملاً له وكسبًا، كما يخلق المسببات بأسبابها، فهي من الله مخلوقة له، ومن العبد صفة قائمة واقعة بقدرته وكسبه، كما إذا قلنا: هذه الثمرة من الشجرة، وهذا الزرع من الأرض، بمعنىٰ أنه منها، ومن الله بمعنىٰ أنه خلقه منها، لم يكن بينهما تناقض. اهـ

وقال السفاريني رحمه الله تعالىٰ: والحاصل أن مذهب السلف ومحققي أهل السنة أن الله تعالىٰ خلق قدرة العبد وإرادته وفعله، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة ومحدث لفعله، والله سبحانه جعله فاعلاً له محدثًا له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]، فأثبت مشيئة للعبد وأخبر أنها لا تكون إلا بمشيئة الله تعالىٰ.

وهذا صريح قول أهل السنة في إثبات مشيئة العبد، وأنها لا تكون إلا بمشيئة الرب. اهـ[(١)].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالىٰ: وأما الدليل النظري علىٰ أن أفعال العبد مخلوقة لله فتقريره أن نقول: إن فعل العبد ناشئ عن أمرين: عزيمة صادقة، وقدرة تامة ... فالذي خلق

(١) "لوامع الأنوار" (١/ ٣١٣)، "الإرشاد" للفوزان (ص ٤٠٣)، "منهاج السنة" (٣/ ١١١)، "الفتاوىٰ" (٨/ ٤٥٩)، "شرح الواسطية" للمصلح (ص ١٦١-١٦٣).

فيك هذه القدرة والعزيمة هو الله عز وجل، وخالق السبب التام خالق للمسبب[(١)].

ومما اتفق عليه السلف: أن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم الله تعالىٰ عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر:٥٥-٥٦][(٢)].

وقال ابن قدامة رحمه الله تعالىٰ: ونعلم أن الله سبحانه وتعالىٰ ما أمر ونهىٰ إلا المستطيع للفعل والترك، وأنه لم يجبر أحداً علىٰ معصية، ولا اضطره إلىٰ ترك طاعة، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧]، فدل علىٰ أن للعبد فعلاً وكسبًا يجزىٰ علىٰ حسنه بالثواب، وعلىٰ سيئه بالعقاب، وهو واقع بقضاء الله وقدره. اهـ

قال ابن عثيمين في "شرحه"[(٣)]: عرفت مما سبق أن فعل العبد مخلوق لله، وأنه كسبٌ للعبد يجازىٰ عليه الحسن بأحسن، والسيء بمثله، فكيف نوفق بينهما؟

* التوفيق بينهما أن وجه كون فعل العبد مخلوقًا لله تعالىٰ أمران:

الأول: أن فعل العبد من صفاته، والعبد وصفاته مخلوقان لله تعالىٰ.

الثاني: أن فعل العبد صادر عن إرادة قلبية وقدرة بدنية، ولولاهما لم يكن فعل، والذي خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله تعالىٰ، وخالق السبب خالق للمسبب، فنسبة فعل العبد إلىٰ خلق

---

(١) "الواسطية" (٢/ ٢١٠-٢١١) بتصرف.

(٢) انظر "الفتاوىٰ" (٨/ ١١٧-١١٨).

(٣) ص (٥٩-٦٠).

الله له نسبة مسبب إلىٰ سبب، لا نسبة مباشرة؛ لأن المباشر حقيقة هو العبد، فلذلك نسب الفعل إليه كسبًا وتحصيلاً، ونسب إلىٰ الله تعالىٰ خلقًا وتقديراً، فلكل من النسبتين اعتبار، والله أعلم.

* والمخالفون للحق في القضاء والقدر طائفتان:

الأولىٰ: الجبرية، يقولون: العبد مجبور علىٰ فعله وليس مختارًا، ونرد عليهم بأمرين:

١- أن الله تعالىٰ أضاف عمل الإنسان إليه، وجعله كسبًا له يعاقب ويثاب بحسبه، ولو كان مجبوراً ما صح نسبته إليه، ولكان عقابه عليه ظلمًا، والله تعالىٰ منزه عن الظلم.

٢- أن كل واحد يعرف الفرق بين الفعل الاختياري والاضطراري في الحقيقة والحكم، فلو اعتدىٰ شخص علىٰ آخر وادعىٰ أنه مجبور علىٰ ذلك بقضاء الله تعالىٰ وقدره لعد ذلك سفهًا مخالفًا للمعلوم بالضرورة.

والطائفة الثانية: القدرية المجوسية، يقولون: العبد مستقلٌّ بفعله، ليس لله تعالىٰ فيه إرادة ولا قدرة ولا خلق.

* ونرد عليهم بأمرين:

١- أنه مخالف لقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر:٦٢]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

٢- أن الله مالك السماوات والأرض، فكيف يكون في ملكه ما لا تتعلق به إرادته وخلقه؟!.

اهـ(١).



(١) انظر "جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١١٠٤-١١١٩) وغيره.

(٥٩/ ١١٧) عَنْ طَاوُوسٍ اَلْيَمَانِيِّ قَالَ: أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اَللهِ ﷺ يَقُولُونَ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ». وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّىٰ اَلْعَجْزِ وَالْكَيْسِ»[(١)].

الشرح

(اَلْعَجْز) هو عدم القدرة، وقيل: هو ترك ما يجب فعله والتسويف به وتأخيره عن وقته. ويحتمل العموم في أمور الدنيا والآخرة.

(وَالْكَيْسِ) ضد العجز، وهو النشاط والحذق بالأمور، ومعناه: أن العاجز قد قُدِّر عجزه، والكِّيس قد قُدِّر كَيسه. اهـ[(٢)].



---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٥).

(٢) شرح مسلم" (١٦/ ١٦٨).

(٦٠/ ١١٩) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي». قَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَىٰ مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: «عَلَىٰ مَوَاقِعِ الْقَدَرِ»[١].

الشرح

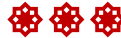
قوله: (ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ) أي: ذريته كما في أحاديث أخرىٰ.

(هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ) واستعملهم بالطاعة، (وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ) واستعملهم بالمعاصي.

(وَلَا أُبَالِي) هذا كقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء:٢٣]، وقد قدر الله تعالىٰ لكل عبد ما سبق علمه أنه صائر إليه، فمن سبقت له السعادة قيض الله تعالىٰ له من الأسباب ما يخرجه من الظلمات إلىٰ النور، ومن غلبت عليه الشقاوة سلط عليه الشياطين فأخرجته من نور الفطرة إلىٰ ظلمات الكفر والحيرة، فهو الهادي والمضل، يضل من يشاء ويحكم ما يريد، لا رادَّ لحكمه، ولا معقب لقضائه، فتعالىٰ الله الملك، لا يُسأل عما يفعل.

اللهم لك الحمد علىٰ نعمة الإسلام والسنة،

ونسألك الثبات علىٰ الدين حتىٰ نلقاك يا أكرم الأكرمين.



(١) حسن لغيره. أخرجه أحمد (٤/ ١٨٦) وغيره، وله شواهد صحيحة، وصححه الألباني في "صحيح الجامع".

(٦١/ ١٤٠) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كَتَبَ اَللهُ مَقَادِيرَ اَلْخَلَائِقِ كُلَّهَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اَلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَعَرْشُهُ عَلَىٰ اَلْمَاءِ»(١).

الشرح

قوله: (... بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) قال العلماء: المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ، لا أصل التقدير، فإن ذلك أزلي لا أول له.

و**قوله:** (وَعَرْشُهُ عَلَىٰ اَلْمَاءِ) أي: قبل خلق السماوات والأرض، ولا يزال على الماء، والماء فوق السماوات.

* والتقدير نوعان:

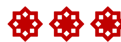
١- تقدير عام شامل لكل كائن، وهو المكتوب في اللوح المحفوظ كما دل عليه الحديث.

٢- تقدير مفصِّل للتقدير العام، وهو أنواع:

الأول: التقدير العمري، وهو المذكور في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الآتي.

الثاني: التقدير السنوي، وهو ما يقدره الله تعالىٰ في ليلة القدر مما هو كائن في العام بعدها، كما قال تعالىٰ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان:٤] الآيات.

الثالث: التقدير اليومي، وهو ما يقدر من حوادث اليوم من حياة وموت وعز وذل ... وغير ذلك، كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] ... وكل هذه التقديرات موجودة في اللوح المحفوظ كبيرها وصغيرها.



(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٦٢/ ١٤١) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ اَلسَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ اَلرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ اَلْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ اَلنَّارِ، وَإِنَّ اَلرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ اَلنَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ اَلْجَنَّةِ»(١).

الشرح

قوله: (إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ اَلنَّارِ) و(إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ اَلْجَنَّةِ) هذا فيما سبق في علم الله تعالىٰ، وكتبه في اللوح المحفوظ ... فكل ما كان وسيكون قد قدره الله تعالىٰ.

وأما كونه انقلب من حال إلىٰ حال فذلك أمر قدره الله تعالىٰ لما سبق في علمه أن هذا العبد صائر إليه، فهدىٰ من شاء فضلاً، وأضلَّ من شاء عدلاً(٢).



---

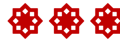
(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٣)، ومسلم (١١).

(٢) انظر "جامع شروح الطحاوية" (١/ ٥٢٨-٥٢٩).

(٦٣/ ١٢٢) عَنْ أَبِي اَلطُّفَيْلِ اَلْبَكْرِيِّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ اِبْنَ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اَلشَّقِيَّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدَ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ. فَقُلْتُ: كَيْفَ يَشْقَىٰ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ؟ فَلَقِيتُ حُذَيْفَةَ بْنَ أُسَيْدٍ اَلْغِفَارِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ اِبْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ لِي: سَمِعْتُ رَسُولَ اَللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اَللهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ اَلْعَبْدَ قَالَ اَلْمَلَكُ: يَا رَبَّنَا ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ؟ فَيَقُولُ اَلرَّبُّ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ اَلْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ اَلْمَلَكُ: رَبَّنَا شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيَقُولُ اَلرَّبُّ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ، ثُمَّ يَقُولُ اَلْمَلَكُ: يَا رَبَّنَا مَا رِزْقُهُ؟ فَيَقُولُ اَلرَّبُّ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ اَلْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبَّنَا مَا أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ اَلرَّبُّ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ اَلْمَلَكُ»(١).

الشرح

هذا الحديث فيه بيان التقدير السنوي كما سبق، والمراد بجميع ما ذكر من الرزق والأجل والسعادة والعمل والذكورة والأنوثة: أنه يظهر ذلك للملك ويأمره بإنفاذه وكتابته، وإلا فقضاء الله تعالىٰ سابق علىٰ ذلك، وعلمه لكل ذلك موجود في الأزل، فهو سبحانه يعلم كل شيء جملة وتفصيلاً، وصفاته سبحانه أوليَّة أزليَّة(٢).



(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(٢) انظر "شرح مسلم" (١٦/ ١٥٨)، "شروح الأربعين النووية" الحديث الرابع.

(٦٤/ ١٤٦) عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: اَلزِّنَا مُقَدَّرٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ كُلُّ شَيْءٍ كَتَبَهُ اَللهُ عَلَيَّ؟ قَالَ: نَعَمْ: قَالَ: كَتَبَهُ عَلَيَّ وَيُعَذِّبُنِي عَلَيْهِ؟ قَالَ: فَأَخَذَ سَالِمٌ اَلْحَصَىٰ فَحَصَبَهُ[١].

(٦٥/ ١٤٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ عِيَاضٍ: أَنَّ غَيْلَانَ وَقَفَ عَلَىٰ رَبِيعَةَ فَقَالَ: يَا رَبِيعَةُ أَنْتَ اَلَّذِي تَزْعُمُ أَنَّ اَللهَ يُحِبُّ أَنْ يُعْصَىٰ؟ قَالَ: رَبِيعَةُ: وَيْحَكَ يَا غَيْلَانُ فَأَنْتَ اَلَّذِي تَزْعُمُ أَنْ يُعْصَىٰ قَسْرًا[٢].

(٦٦/ ١٤٨) عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: إِنَّ اَللهَ لَوْ أَرَادَ أَنْ لَا يُعْصَىٰ لَمْ يَخْلُقْ إِبْلِيسَ[٣].

الشرح

قوله: (كَتَبَهُ عَلَيَّ وَيُعَذِّبُنِي) وهذه شبه ساقطة، فإن الله تعالىٰ أعطىٰ العبد عقلاً ومشيئة وإرادة، فهو المقترف للمعصية بإرادته واستطاعته، ولذلك عوقب عليها لتعمده إياها.

وتقدير ذلك كونـًا لا ينافي كون العبد له مشيئة، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:٢٣]، وقد سبق نحو هذا[٤].

وقوله: (فَحَصَبَهُ) فيه إهانة أهل البدع وزجرهم عن إثارة الشبهات.

وقوله: (غَيْلَان) هو الدمشقي القدري المصلوب في القدر.

(رَبِيعَة) الفقيه، شيخ مالك.

---

(١) حسن. أخرجه اللالكائي (١٢٧٠)، والآجري ص (٢٤٠) وغيرهما.

(٢) حسن. أخرجه اللالكائي (١٢٦٥) وغيره.

(٣) صحيح. أخرجه عبد الله بن أحمد في "السنة" (٩٣٦)، واللالكائي (١٢٤٥) وغيرهما، وأسانيد المؤلف فيها مقال.

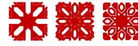
(٤) انظر "جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١١٣٠-١١٣٩)، "شرح اللمعة" ص (٥٨).

قوله: (يُحِبُّ أَنْ يُعْصَىٰ) الله تعالىٰ لا يحب المعاصي وإن كان قدر ذلك كونـًا، فالمحبة تكون في التقدير الشرعي كما سبق قريبـًا.

فهذا الإلزام الذي قاله هذا المبتدع باطل شرعـًا وعقلاً.

قوله: (... يُعْصَىٰ قَسْرًا) أي: قهراً، كما تزعم القدرية القائلة: لم يخلق الله تعالىٰ أفعال العباد ولم يقدر المعاصي.

قوله: (لَوْ أَرَادَ أَنْ لَا يُعْصَىٰ لَمْ يَخْلُقْ إِبْلِيسَ) أي: أراد ذلك كونـًا لحكمة كما سبق، ولم يُرده شرعـًا.



٢٦- باب فِي أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنَّ اَلْإِيمَانَ إِخْلَاصٌ لِلَّهِ بِالْقُلُوبِ وَشَهَادَةٌ بِالْأَلْسِنَةِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، عَلَىٰ نِيَّةٍ حَسَنَةٍ وَإِصَابَةِ اَلسُّنَّةِ.

الشرح

قال الإمام الحميدي رحمه الله تعالىٰ: السنة عندنا... وأن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولا ينفع قول إلا بعمل، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول وعمل بنية إلا بسنة[(١)].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: ومن أصول أهل السنة والجماعة: أن الدين والإيمان قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح[(٢)].

وقال: والصحابة والتابعون والأئمة متفقون علىٰ ذلك، وحكىٰ غير واحد الإجماع علىٰ ذلك[(٣)].

وخالف أهل البدع المرجئة والخوارج والمعتزلة وغيرهم ...

قوله: (إِخْلَاصٌ لِلَّهِ بِالْقُلُوبِ) أي: بأعمال وأقوال القلوب.

فأقوال القلب: الإقرار والمعرفة والتصديق واليقين ...،

وعمل القلب: النية والإخلاص والمحبة والانقياد والتوكل ...[(٤)].

قوله: (وَشَهَادَةٌ بِالْأَلْسِنَةِ) وهو كالنطق بالشهادتين، والأذان، والذكر، وقراءة القرآن ...

---

(١) "أصول السنة" للحميدي.

(٢) "الواسطية".

(٣) "الفتاوىٰ" (٧/ ٣٠٨/ ١٧١/ ٣٦٦).

(٤) "الفتاوىٰ" (٧/ ١٨٦)، "زيادة الإيمان ونقصه" للبدر (ص ٣٦-٣٨)، "معارج القبول" (٢/ ٥٨٧-٥٩٢).

وسائر العبادات اللفظية ... وذلك شامل لقول اللسان وعمله.

قوله: (وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ) الأعمال المشروعة من الإيمان؛ كالصلاة والزكاة والجهاد[(١)].

قوله: (عَلَىٰ نِيَّةٍ حَسَنَةٍ) النية الحسنة: هي أن يقصد العبد بقوله وعمله وجه الله تعالىٰ، فلا يتم قول اللسان وعمل الجوارح إلا بالنية الحسنة، فالأعمال التعبدية التي لا يراد بها وجه الله تعالىٰ شرك، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

قوله: (وَإِصَابَةِ اَلسُّنَّةِ) لا يقبل العمل إلا إذا كان موافقًا للسنة، أي: للشريعة التي أنزلها الله سبحانه، مع النية الحسنة والتوحيد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: ... ومن هذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة في تفسير الإيمان، فتارة يقولون: هو قول وعمل، وتارة يقولون: قول وعمل ونية، وتارة يقولون: قول وعمل ونية واتباع سنة، وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وكل هذا صحيح.

فإذا قالوا: (قول وعمل) فإنه يدخل في القول: قول القلب واللسان جميعًا.

وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أُطلق... وعمل الجوارح.

ومن زاد الاعتقاد رأىٰ أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر، أو خاف ذلك، فزاد: الاعتقاد بالقلب.

ومن قال: (قول وعمل ونية) قال: فالقول يتناول الاعتقاد وقول اللسان، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية، فزاد ذلك.

ومن زاد (اتباع السنة) فلأن ذلك كله لا يكون محبوبًا لله تعالىٰ إلا باتباع السنة ...

---

(١) انظر المراجع السابقة.

كما سئل سهل التستري عن الإيمان ما هو؟ فقال: قول وعمل ونية وسنة؛ لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة. اهـ[(١)].



(١) (٧/ ١٧٠-١٧١).

قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١].

ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ فَقَالَ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة:١١٢].

وَقَالَ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥].

وَقَالَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَالْإِيمَانُ بِاللهِ هُوَ بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ وَتَصْدِيقِ ذَلِكَ الْعَمَلِ، فَالْقَوْلُ وَالْعَمَلُ قَرِينَانِ لَا يَقُومُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ.

الشرح

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ الآية.

دلت هذه الآية علىٰ أن الإيمان قول وعمل، وعلىٰ زيادته ونقصه، فقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: كاملو الإيمان، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهذا يشمل: إقرار القلب وانقياده، وسائر أقواله وأعماله، وقول اللسان وعمله وعمل الجوارح؛ لأن ذلك كله من الإيمان بالله ورسوله، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ دلالة علىٰ ثبات الإيمان في قلوبهم، ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ هذه أعمال الإيمان بالجوارح التي لا يقوم بها – مع صلاح النية – إلا من وقر

الإيمان في قلبه، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صلاح النية، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآية.

دلت الآية علىٰ أن العمل – ومنه الجهاد – من الإيمان، والقول والنية كما في وصفهم في قوله تعالىٰ: ﴿التَّائِبُونَ﴾، والتوبة هي: الإقلاع عن الذنب والعزم علىٰ عدم العودة فيه ابتغاء وجه الله تعالىٰ، وخوفًا من عقابه، والاستغفار مما مضىٰ، فشمل ذلك النية والقول والعمل.

﴿الْعَابِدُونَ﴾ العبادة: كل الأقوال والأعمال والنيات التي يحبها الله تعالىٰ.

﴿الْحَامِدُونَ﴾ لله تعالىٰ، والحمد يشمل: الاعتراف بالقلب وثناء اللسان.

﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون والمجاهدون.

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ لله تعالىٰ ويشمل الصلاة.

﴿الْآمِرُونَ ...﴾ إلىٰ آخر الآية. وكل هذه الأعمال من الإيمان.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾، وهذه أعمال من الإيمان، ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾؛ لأن توحيدهم لله تعالىٰ، وإقامة العبودة دلالة علىٰ الإيمان.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ لأن ذلك من الإيمان الذي يحبه الله تعالىٰ(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: الإيمان اسم لجميع الطاعات الباطنة والظاهرة(٢).

---

(١) انظر "الفتاوىٰ" (٧/ ٥٥١-٥٥٤)، التفاسير.

(٢) "الفتاوىٰ" (٧/ ٥٥٢).

قوله: (لَا يَقُومُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ) هذا مذهب جمهور السلف، وخالف بعض الحنفية في ذلك فأخرجوا العمل من مسمىٰ الإيمان، والأدلة ترد قولهم، وكما سبق النقل: أن الإيمان بلا عمل كفر.

وقال الآجري رحمه الله تعالىٰ: إنه لا يتم الإيمان إلا بالعمل، هذا هو الدين الذي قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة:٥].

وقال ابن بطة رحمه الله تعالىٰ: فقد أخبر الله تعالىٰ في كتابه في آي كثيرة منه أن هذا الإيمان لا يكون إلا بالعمل وأداء الفرائض بالقول والجوارح، وبيَّن ذلك رسول الله ﷺ وشرحه في سنته وأعلمه أمته[1].

وخالف المرجئة فجعلوا الإيمان هو المعرفة فقط، وهو قول الجهمية.

ومنهم من قال: هو التصديق، ولا يلزم معه إقرار، وهذا قول جمهور المرجئة، الأشاعرة وغيرهم.

ومنهم من قال: الإيمان قول باللسان فقط، وهذا قول الكرامية.

وأما الخوارج فأثبتوا ما يقوله أهل السنة، وغلوا في ذلك؛ فكفَّروا من ترك شيئًا من أعمال الإيمان أو وقع في ذنب[2].



(١) "الشريعة" (١/ ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٨٩)، "الإبانة" (٢/ ٧٧١)، وراجع كتاب "أقوال ذوي العرفان في أن أعمال الجارح داخلة في مسمىٰ الإيمان".

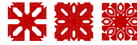
(٢) راجع للباب "جامع شروح الطحاوية" (١/ ٧٨٩-٨٣٥).

(٦٧/ ١٣٣) عَنِ اَلْحَسَنِ اَلْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: لَا يَسْتَوِي قَوْلٌ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا يَصْلُحُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلَا يَصْلُحُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إِلَّا بِالسُّنَّةِ(١).

(٦٨/ ١٣٥) عَنْ سُفْيَانَ الثَّورِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: اَلْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ(٢).

الشرح

قوله: (قَوْلٌ وَعَمَلٌ) قال الإمام البخاري رحمه الله تعالىٰ: لقيت أكثر من ألف رجل من علماء الأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل(٣).



(١) حسن. في سنده يحيىٰ بن سليم: مختلف فيه، وقد روىٰ له الجماعة، والأثر أخرجه اللالكائي (١٨) وغيره.

(٢) أخرجه اللالكائي (١٥٨٤) وغيره، وفيه ما في السند الأول.

(٣) كما في "الفتح" (١/ ٤٧).

٢٧- باب في تمام الإيمان وزيادته ونقصانه

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: إِنَّ اَلْإِيمَانَ دَرَجَاتٌ وَمَنَازِلُ يَتِمُّ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَلَوْلَا ذَلِكَ اِسْتَوَىٰ فِيهِ اَلنَّاسُ، وَلَمْ يَكُنْ لِلسَّابِقِ فَضْلٌ عَلَىٰ اَلْمَسْبُوقِ، وَبِرَحْمَةِ اَللهِ وَبِتَمَامِ اَلْإِيمَانِ يَدْخُلُ اَلْمُؤْمِنُونَ اَلْجَنَّةَ، وَبِالزِّيَادَةِ فِيهِ يَتَفَاضَلُونَ فِي اَلدَّرَجَاتِ، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:٢١]، وَمِثْلُ هَذَا فِي اَلْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

الشرح

قال ابن قدامة رحمه الله تعالىٰ: الإيمان قول وعمل؛ قول باللسان، وعمل بالأركان، وعقد بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان(١).

وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالىٰ: أجمع أهل الفقه والحديث علىٰ أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية(٢).

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالىٰ: وأجمعوا علىٰ أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية(٣).

ونقل الإجماع القيرواني وابن بطال والمقدسي وشيخ الإسلام وابن القيم وغيرهم(٤).

قال شيخ الإسلام: والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ

---

(١) "شرح اللمعة" ص (٦١).

(٢) "التمهيد" (٩/ ٢٣٨)، وانظر "الفتاوىٰ" (٧/ ٣٣٠).

(٣) "رسالة إلىٰ أهل الثغر" ص (٢٧٢)، "المقالات" ص (٢٩٠).

(٤) انظر كتاب البدر "زيادة الإيمان ونقصانه" ص (١٤٣- وما بعدها)، "الفتاوىٰ" (٧/ ٦٧٢)، "المدارج" (١/ ٤٢١).

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢] ....، وذكر ست آيات، وقد ذُكرت في "القول المفيد" وذكرنا شرحها هناك(١).

قوله: (دَرَجَات) كما قال تعالىٰ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء:٩٥]، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

وقال شيخ الإسلام: فدرجة المؤمن القوي في الجنة أعلىٰ، وإن كان كل منهم كمل ما وجب عليه(٢).

قوله: (وَمَنَازِل) هذا بمعنىٰ الدرجات.

قوله: (يَتِمُّ) قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة:٣].

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ: إن كان قبل زيادته تامًا فكما يزيد كذا ينقص(٣).

قوله: (وَيَزِيدُ) سبق آنفًا، (وَيَنْقُصُ) قال البيهقي بعد ذكر أدلة زيادة الإيمان: فثبت بهذه الآيات أن الإيمان قابل للزيادة، وإذا كان قابلاً للزيادة فعدمت كان عدمها نقصانًا(٤).

فأدلة زيادة الإيمان يستدل بها علىٰ نقصه، وقد جاءت أدلة تدل علىٰ النقص، كقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]، ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ...﴾ [الحجرات:١٤] الآية.

---

(١) انظر "كتاب الإيمان" ص (٢١٥-٢١٦).

(٢) "الإيمان" ص (٣٢١).

(٣) أخرجه الخلال في "السنة" (١٠٣٠).

(٤) "شعب الإيمان" (١/ ١٦٠).

ومن السنة ما سيأتي ذكره وغيره(١).

قوله: (وَبِرَحْمَةِ اَللهِ وَبِتَمَامِ اَلْإِيمَانِ يَدْخُلُ اَلْمُؤْمِنُونَ اَلْجَنَّةَ) الجنة لا تنال إلا برحمة الله تعالىٰ، والأعمال سبب، وإن كان الثواب حقيقةً أعظم من العمل، لكن ذلك فضل الله تعالىٰ ورحمته وكرمه قال ﷺ: «لا يُدْخِل أحداً منكم عملُه الجنة، ولا يُجيره من النار ولا أنا إلا برحمة من الله»(٢) عن جابر رضي الله عنه.

قال النووي رحمه الله تعالىٰ: وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل السنة أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف:٧٢]، ونحوهما من الآيات الدالة علىٰ أن الأعمال يُدخل بها الجنة، فلا يعارض هذه الأحاديث، بل معنىٰ الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالىٰ وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الأحاديث، ويصح أنه دخل الأعمال – أي: بسببها – وهي من الرحمة، والله أعلم(٣).

****

(١) انظر كتاب البدر (٥١-٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٧).

(٣) "شرح مسلم" (١٧/ ١٣٢-١٣٣)، وانظر "شروح الطحاوية" (٢/ ١٠٧٣-١٠٧٥).

(٦٩/ ١٣٧) عَنْ اِبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «مَنْ اِقْتَنَىٰ كَلْبًا إِلَّا كَلْبَ مَاشِيَةٍ أَوْ صَيْدٍ، نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ قِيرَاطٌ كُلَّ يَوْمٍ»(١).

(٧٠/ ١٣٨) عَنْ عَبْدِ اللهِ – ابن مسعود – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «نُقْصَانُ دِينِ اَلنِّسَاءِ اَلْحَيْضُ»(٢).

الشرح

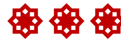
(٦٩/ ١٣٧) الحديث صريح في أن المعاصي تنقص الأجر، ومن ثَم تُضعف الإيمان.

وقوله: (مَنْ اِقْتَنَىٰ) أي: لغير حاجة، أما إذا كان لحراسة أو ماشية أو للصيد به فلا حرج.

(نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ قِيرَاطٌ كُلَّ يَوْمٍ) أي: نقص من أجر عمله، والقيراط مقدار يعلمه الله تعالىٰ، كما قاله أهل العلم.

(٧٠/ ١٣٨) الحديث فيه أن من نقصت طاعته نقص إيمانه؛ سواء كانت هذه الطاعات واجبة أو مستحبة، وسواء كان معذوراً – كالمرأة الحائض – أو لم يكن معذوراً.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: ومما يدل علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص قول النبي ﷺ للنساء: «إنكن ناقصات عقل ودين ...»(٣).



---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٨٠)، ومسلم (١٥٧٤) نحوه.

(٢) حسن. وله شاهد في الصحيحين عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: «أما نقصان دينها؛ فتمكث الليالي لا تصلي»، أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠).

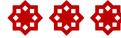
(٣) انظر "الفتاوىٰ" (١٣/ ٥١)، كتاب: زيادة الإيمان ونقصانه ص (٩٧–١٠٠).

(٧١/ ١٣٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[(١)].

الشرح

في الحديث دلالة على أن الأخلاق من الإيمان، وأن المسلم كلما ازداد منها زاد إيمانه، وكلما نقص منه نقص إيمانه.

والخلق: يشمل الإحسان في عبادة الله تعالى وفي معاملة العباد[(٢)].



(١) صحيح. وسند المؤلف ضعيف، أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، وأحمد (٢/ ٢٥٠) وغيرهما، وصححه الوادعي والألباني.

(٢) انظر "منهاج السنة" (٥/ ٢٩٦)، كتاب "زيادة الإيمان" للبدر ص (٩٦-٩٧).

(٧٢/ ١٤١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «اَلْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ»(١).

(٧٣/ ...) وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ عَبَّادٍ قَالَ: كُلُّ مَنْ أَدْرَكْتُ مِنَ اَلْمَشَايِخِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَعِيسَىٰ بْنِ يُونُسَ، وَفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وعَبْد اللهِ بْنِ اَلْمُبَارَكِ وَوَكِيع بْنِ اَلْجَرَّاحِ وَغَيْرِهِمْ لَا يُكَفِّرُونَ أَحَدًا بِذَنْبٍ، وَلَا يَشْهَدُونَ لِأَحَدٍ أَنَّهُ فِي اَلْجَنَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَعْصِ اَللهَ وَلَا أَنَّهُ فِي اَلنَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ اَلْكَبَائِرَ، وَمَنْ خَالَفَ هَذَا فَهُوَ عِنْدَهُمْ مُبْتَدِعٌ(٢).

قَالَ اِبْنُ وَضَّاحٍ: وَقَالَ لِي يُونُسُ بْنُ عَبْد الْأَعْلَىٰ: اِلْزَمْ هَذَا وَلَا تَدَعْهُ.

وَقَالَ حُسَيْنُ بْنُ اَلْحَسَنِ الْمَرْوَزِيُّ: نَعَمْ، هَذَا هُوَ اَلْحَقُّ وَلَا يَقُولُ خِلَافَهُ إِلَّا زِنْدِيقٌ.

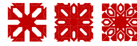
الشرح

أثر أبي هريرة سبق الكلام علىٰ معناه.

وأما أثر زهير فهذا يناسب البابين الآتيين (٢٨) (٢٩)، وسيأتي.

ولعل مراد المؤلف بهذا الرد علىٰ قول الخوارج في الإيمان.

قوله: (وَلَا يَقُولُ خِلَافَهُ إِلَّا زِنْدِيقٌ) لأنه متألي علىٰ الله تعالىٰ، أو مدعٍ للغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه.



---

(١) صحيح. أخرجه ابن ماجه (٧٤)، واللالكائي (١٧١٢) وغيرهما، وقد سبق معناه.

(٢) وانظر "شروح الطحاوية" (٢/ ٩١٧- وما بعده)، و(٧٣١).

٢٨- باب فِي اَلِاسْتِغْفَارِ لِأَهْلِ اَلْقِبْلَةِ وَالصَّلَاةِ عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ

وَأَهْلُ اَلسُّنَّةِ لَا يَحْجُبُونَ اَلِاسْتِغْفَارَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ اَلْقِبْلَةِ، وَلَا يَرَوْنَ أَنْ تُتْرَكَ اَلصَّلَاةُ عَلَىٰ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ اَلْإِسْرَافِ عَلَىٰ نَفْسِهِ. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ اَلصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣].

الشرح

هذا الباب فيه الرد علىٰ الخوارج والمعتزلة الذين يكفرون المسلم بالكبيرة، ويمنعون الاستغفار له والصلاة عليه. والمراد بـ(أهل القبلة) المسلمون الموحدون.

والمصنف بعد أن ذكر مسائل الصفات والإيمان؛ شرع في ذكر مسائل التكفير والصحابة والإمامة وغيرها، وهذا سلوك حسن.

اشتمل هذا الباب علىٰ ثلاث مسائل: الاستغفار للمسلم الموحد، والصلاة عليه إن مات، وعدم تكفير المسلم بغير برهان شرعي.

الأولىٰ: الاستغفار لأهل القبلة، ذكر المؤلف دليلاً وهو: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، الاستغفار طلب المغفرة، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣] ادع لهم.

وقال الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: ... ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنطهم.

قال الشيخ الفوزان في شرحه: نستغفر للمسيء لأنه أخونا، وندعو له بالتوبة والتوفيق وإن كان مذنبًا، وهذا حق الإيمان علينا، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، ولا نُقنِّط المذنب من رحمة الله كما تقول الخوارج والمعتزلة(١).

---

(١) (ص ٧٧٦).

وقال العلامة السعدي رحمه الله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩] فإنهم بسبب إيمانهم كان لهم حق علىٰ كل مسلم ومسلمة، ومن جملة حقوقهم أن يدعىٰ لهم ويستغفر لذنوبهم ... اهـ

ويدخل في أهل القبلة أهل البدع – من المسلمين – علىٰ تفاصيل في المسألة.

* المسألة الثانية: الصلاة علىٰ من مات من المسلمين:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة:١٠٣]، الصلاة هنا: الدعاء بالرحمة والمغفرة والبركة ونحوها، ومن ذلك الدعاء للميت في الصلاة، إذ هو المقصود الأكبر من الصلاة علىٰ الميت.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: ونرىٰ الصلاة خلف كل برٍّ وفاجر من أهل القبلة، وعلىٰ من مات منهم(١).

وقال النخعي رحمه الله تعالىٰ: لم يكونوا – يعني الصحابة – يحجبون الصلاة علىٰ أحد من أهل القبلة(٢).

وقال ابن حزم رحمه الله تعالىٰ: ويصلىٰ علىٰ كل مسلم بر أو فاجر، مقتول في حد أو في حرابة أو في بغي، ويصلي عليهم الإمام وغيره، ولو أنه شر من علىٰ ظهر الأرض إذا مات مسلماً؛ لعموم أمر النبي ﷺ: «صلوا علىٰ صاحبكم»، والمسلم صاحب لنا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات:١٠]، فمن منع الصلاة علىٰ مسلم فقد قال قولاً عظيماً، وإن الفاسق لأحوج إلىٰ دعاء إخوانه المؤمنين من الفاضل المرحوم(٣).

---

(١) (٩٠٧).

(٢) اللالكائي (٣/ ١٠٦٠).

(٣) "المحلىٰ" (٥/ ٢٤٩).

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: فكل مسلم لم يعلم أنه منافق جاز الاستغفار له والصلاة عليه، وإن كان فيه بدعة أو فسق، لكن لا يجب علىٰ كل أحد أن يصلي عليه(١).

"وقد تبين من خلال ذلك: أن حكم الصلاة علىٰ أهل البدع وتشييعهم دائر بين المنع والجواز بحسب حال المبتدع، فإن كان كافراً فيمنع من الصلاة عليه وتشييع جنازته، وإن كان مسلمًا فالصلاة عليه وتشييع جنازته أمر مشروع في الدين"(٢).

*** المسألة الثالثة: أهل السنة لا يكفِّرون أهل القبلة بغير برهان شرعي.**

قال الإمام الصابوني رحمه الله تعالىٰ: ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوبًا كثيرة صغائر كانت أو كبائر لا يكفر بها، وإن خرج من الدنيا غير تائب منها ومات علىٰ التوحيد والإخلاص فإن أمره إلىٰ الله عز وجل: إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل يخرجه منها إلىٰ نعيم دار القرار. اهـ(٣).

وهم في ذلك وسط بين المرجئة والخوارج.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: وهم – أهل السنة – مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال سبحانه في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨]، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:٩] إلىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

(١) "منهاج السنة" (٥/ ٢٣٥).

(٢) انظر للمسألة "موقف أهل السنة من أهل الأهواء" (١/ ٤١٩-٤٣٥).

(٣) ص (١٨٤) مع شرح الشيخ ربيع، ط. مجالس الهدىٰ.

[الحجرات:١٠]، فالله عز وجل وصف الطائفتين بالإيمان مع الاقتتال والبغي، وأخبر أنهم إخوة، وأن الأخوة لا تكون إلا بين المؤمنين لا بين مؤمن وكافر(١).



(١) "شرح الواسطية" جمع المصلح ص (١٦٩-١٧١)، "منهاج السنة" (٨/ ٥٢٩)، وانظر "الطحاوية" (١/ ٧٣١- وما بعده).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ اَلْعُتْبِيِّ قَالَ: سُئِلَ سَحْنُونُ عَنْ قَوْلِ مَالِكٍ فِي أَهْلِ اَلْبِدَعِ الْإِبَاضِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَجَمِيعِ أَهْلِ اَلْأَهْوَاءِ أَنَّهُ لَا يُصَلَّىٰ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ تَأْدِيبًا لَهُمْ، وَنَحْنُ نَقُولُ بِهِ عَلَىٰ هَذَا اَلْوَجْهِ، فَأَمَّا إِذَا وُقِفُوا، وَلَمْ يُوجَدْ مَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِمْ، فَأَرَىٰ أَنْ لَا يُتْرَكُوا بِغَيْرِ صَلَاةٍ.

قِيلَ لَهُ: فَهَؤُلَاءِ اَلَّذِينَ قَتَلَهُمْ اَلْإِمَامُ مِنْ أَهْلِ اَلْأَهْوَاءِ لَمَّا بَانُوا عَنْ اَلْجَمَاعَةِ وَدَعَوْا إِلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَنَصَبُوا اَلْحَرْبَ هَلْ يُصَلَّىٰ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَهُمْ مِنْ اَلْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ بِذُنُوبِهِمْ اَلَّتِي اِسْتَوْجَبُوا بِهَا اَلْقَتْلَ يُتْرَكُونَ بِغَيْرِ صَلَاةٍ.

فَقِيلَ لَهُ: فَمَا اَلْقَوْلُ فِي إِعَادَةِ اَلصَّلَاةِ خَلْفَ أَهْلِ اَلْبِدَعِ؟ فَقَالَ: لَا تُعَادُ فِي اَلْوَقْتِ وَلَا بَعْدَهُ. وَكَذَلِكَ يَقُولُ أَشْهَبُ وَالْمُغِيرَةُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ، وَقَدْ أَنْزَلَهُ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اَلصَّلَاةَ تُعَادُ خَلْفَهُ فِي اَلْوَقْتِ وَبَعْدَهُ بِمَنْزِلَةِ اَلنَّصْرَانِيِّ، وَرَكَّبَ قِيَاسَ قَوْلِ الْإِبَاضِيَّةِ وَالْحَرُورِيَّةِ اَلَّذِينَ يُكَفِّرُونَ جَمِيعَ اَلْمُسْلِمِينَ بِالذُّنُوبِ مِنْ اَلْقَوْلِ.

الشرح

وهذا هو خلاصة المبحث الذي سبق تحريره، والله الموفق.

قوله: (لَا تُعَادُ فِي اَلْوَقْتِ وَلَا بَعْدَهُ) يريد ممن كان من أهل التوحيد، فلا تعاد الصلاة بعدهم، وأما إن بلغت بدعته الكفر كغلاة الصوفية فتعاد الصلاة لمن صلىٰ جاهلًا بأمرهم ثم علم.

قوله: (بِمَنْزِلَةِ اَلنَّصْرَانِيِّ) يعني: أنه جعله كالكافر في الحكم.

قوله: (وَرَكَّبَ قِيَاسَ قَوْلِ الْإِبَاضِيَّةِ وَالْحَرُورِيَّةِ) أي: أن قوله صار كقولهم في جعلهم المسلم العاصي والكافر سواء في الحكم.



٢٩- باب فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا نَفْيُ الْإِيمَانِ بِالذُّنُوبِ

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ، وَرُبَّمَا ذَكَرْتُ لَكَ شَيْئًا مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَىٰ مَعَانِي مَا ضَاهَاهَا مِمَّا لَمْ أَذْكُرْهُ، وَتَحْرِيفِ تَأْوِيلِهَا كَفَّرَ الْخَوَارِجُ النَّاسَ بِصِغَارِ الذُّنُوبِ وَكِبَارِهَا، مِنْهَا:

الشرح

هذا الباب ذكر فيه المؤلف أحاديث فيها نفي الإيمان، وذلك لبيان معانيها، وأن المراد منها نفي كمال الإيمان، لا أصل الإيمان كما يقول الخوارج؛ الذين بنوا مذهبهم في التكفير علىٰ أصلين:

الأول: أنهم ظنوا أن الإيمان شيء واحد لا يتجزأ؛ فإذا ذهب بعضه ذهب كله.

الثاني: ظنوا أن الشخص الواحد لا يكون مستحقًا للثواب والعقاب، بل إما هذا وإما هذا، فأحبطوا جميع الحسنات التي فعلها بارتكاب الكبائر[١].



(١) انظر "الفتاوىٰ" (٧/ ٥١٠)، "شرح الأصفهانية" (ص ٢٢٦)، "التكفير وضوابطه" (ص ١٧٨-١٨٠).

(٧٤/ ١٤٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ أَبْصَارَهُمْ إِلَيْهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١).

الشرح

قال النووي رحمه الله تعالىٰ: اختلف العلماء في معنىٰ هذا الحديث، والصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، هذا من الألفاظ التي تطلق علىٰ نفي الشيء، والمراد نفي كماله... وإنما تأولناه لحديث أبي ذر مرفوعـًا: «من قال لا إله إلا اله دخل الجنة ... وإن زنىٰ وإن سرق» ... ومع إجماع أهل السنة علىٰ أن مرتكب الكبائر لا يكفر إلا بالشرك ...، وتأوله – أي: الحديث – بعض العلماء علىٰ أن معناه أن من فعله مستحلًّا مع علمه بتحريمه ... اهـ بتصرف من "شرح مسلم".

ونقص الإيمان هنا معناه: أن اجتناب المعاصي من الإيمان، فإذا تلبس بالمعصية نقص إيمانه وضَعُف، أو ارتفع من قلبه وعمله كمال الإيمان كما في حديث أبي هريرة ﵁ مرفوعـًا: «إذا زنىٰ الرجل خرج منه الإيمان فكان كالظلة، فإذا أقلع رجع إليه الإيمان»، رواه أبو داود بسند صحيح.

وفي المسألة ثلاثة عشر قولاً كما قال الحافظ، وما سبق هو الراجح(٢).

وذكر شيخ الإسلام هذه المسألة وأقوال الخوارج والمعتزلة والمرجئة ... ثم قال: فلم يحمل هذا الحديث علىٰ هذا- أن ظاهره أن الزاني يصير كافراً – أحد من الأئمة، ولا هو أيضـًا ظاهر الحديث؛ لأن قوله: «خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة» دليل علىٰ أن

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧).

(٢) انظر "البحر الثجاج" (٢/ ٣٣٤-٣٤٥).

الإيمان لا يفارقه بالكلية؛ فإن الظلة تظل صاحبها، وهي متعلقة ومرتبطة به نوع ارتباط .. - إلىٰ قوله -: كذلك الزاني والسارق والشارب والمنتهب لم يعدم الإيمان الذي به يستحق أن لا يخلد في النار، وبه ترجىٰ له الشفاعة والمغفرة، وبه يستحق المناكحة والموارثة، لكن عُدِم الإيمان الذي يستحق بها النجاة من العذاب وبه يستحق تكفير السيئات وبه يستحق أن يكون محموداً مرضيًّا، وهذا يبين أن الحديث علىٰ ظاهره الذي يليق به، والله تعالىٰ أعلم[١].



(١) "الفتاوىٰ" (٧/ ٦٧٠).

(٧٥/ ١٥٠) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: مَا خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا قَالَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ»(١).

(٧٦/ ١٥١) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا هُوَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»(٢).

الشرح

(لَا إِيمَانَ) علىٰ ما سبق في قوله: «لا يؤمن» في الحديث السابق، أي: لا إيمان كامل، بل إيمان ناقص، وصاحبه فاسق بمعصيته ناقص الإيمان، أو: مؤمن عاصٍ.

(أَمَانَةَ) الأمانة تشمل الدين كله، وتشمل الأمانة مع الله تعالىٰ، وهي: ما كلف به العبد من الطاعة ... وأما مع الخلق فهي الحفاظ وأداء حقوقهم، فالأمانة لب الإيمان، وهي منه بمنزلة القلب من البدن ... فمن ضيَّع جزءاً منها ضعف إيمانه بقدره، فإن ضيَّع الكل خرج عن جملة الإيمان(٣).

وقوله: (مَا هُوَ بِمُؤْمِنٍ) علىٰ ما سبق تفسيره.

(جَارُهُ) عام في الدار وغيره.

(بَوَائِقَهُ) جمع بائقة، وهي الغائلة والداهية والفتك، وسميت بهذا الاسم لأنها توبق صاحبها، أي: تهلكه(٤).

---

(١) حسن. أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥) وغيره، وصححه العلامة الألباني رحمه الله، وسند المؤلف ضعيف، وكذا الحديث الآتي.

(٢) حسن لغيره. أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٤٧٤) وغيره، وله شاهد عن أبي شريح في البخاري نحوه (٦٠١٦).

(٣) "فيض القدير" (٦/ ٣٨١-٣٨٢).

(٤) "البحر الثجاج" (٢/ ١٥٧).

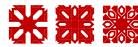
(٧٧/ ١٥٢) عَنْ عَبْدِ اللهِ – بن مسعود – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِاللَّعَّانِ وَلَا الطَّعَّانِ، وَلَا بِالْفَاحِشِ وَلَا بِالْبَذِيءِ»(١).

(٧٨/ ١٥٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»(٢).

الشرح

قوله: (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ) أي: ليس من صفات المؤمن الكامل، بل هو ناقص الإيمان (بالطعان)، أي: الوقَّاع في أعراض الناس بنحو ذم أو غيبة أو شتم، (اللعان) أي: الذي يكثر لعن الناس، (الفاحش) أي: ذي الفحش في كلامه وفعاله، فيشمل الأقوال والأعمال المنحرفة، (البذيء) في منطقه، إما بالكلام المنحرف أو الخشن الغليظ.

قوله: (لَا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ ...) وهكذا سائر الصحابة كما قال أهل العلم، ومعناه: أن من عرف حق الأنصار ومكانهم في الدين ومبادرتهم إلىٰ نصره وإظهاره وذبهم عن النبي ﷺ أحبهم ضرورة بحكم صحة إيمانه وحبه للإسلام وأهله، ومن كان منافق السريرة فإنه يبغضهم لما في قلبه من بغض للإسلام ... فيا ويل الرافضة من النفاق(٣).



---

(١) صحيح. سند المؤلف ضعيف، وله طرق صحيحة عند أحمد (١/ ٤١٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) صحيح كسابقه. أخرجه أحمد (١/ ٣٠٩)، وصححه شاكر وغيره، وله شاهد في "مسلم" (٧٧) عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ برقم (٧٦).

(٣) انظر "إكمال المعلم" (١/ ٣٧٦)، "البحر الثجاج" (٢/ ٥١٨-وما بعده).

٣٠- باب فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ

(٧٩/ ١٥٧) عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(١).

الشرح

الباب الأول (٢٩) ذكره المؤلف ردًّا علىٰ الخوارج، وهذا الباب ذكره ردًّا عليهم أيضـًا، وردًّا علىٰ المرجئة الذين يقولون: لا ينقص الإيمان مع المعصية، والحق وسط بين غلو الخوارج في الوعيد؛ وبين غلو المرجئة في الرجاء.

(لَا تَرْجِعُوا) لا تصيروا.

(كُفَّارًا) المراد كفر الأخوة الإيمانية، وقيل: لا تفعلوا فعل الكفار في ضرب رقاب المسلمين.

وقيل: هو في المستحيل. وقيل: إن القتال للمسلمين يفضي إلىٰ الكفر ... وقد ذكر في المسألة عشرة أقوال، والقول الأول أقرب(٢).



(١) صحيح لغيره، وهو مرسل لكنه في "الصحيحين" عن جرير وابن عمر وأبي بكرة وغيرهم.

(٢) راجع "الفتح" عند حديث (٦٨٧٥)، "البحر الثجاج" (٢/ ٤٤٧-٤٤٨).

(٨٠/ ١٥٨) عَنْ اَلنُّعْمَانِ بْنِ عُمْرِو بْنِ مُقْرِنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «سِبَابُ اَلْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»(١).

(٨١/ ١٦٣) قَالَ مُحَمَّدٌ: وَمِنْ اَلْكُفْرِ أَيْضًا مَا جَاءَ فِي اَلْأَحَادِيثِ مَا يَكُونُ مَعْنَاهُ كُفْرُ اَلنِّعْمَةِ. وَمِنْهُ قَوْلُ اَلنَّبِيِّ ﷺ فِي اَلنِّسَاءِ: ذَكَرَ اَلنَّارَ فَقَالَ: «وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا اَلنِّسَاءَ». قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اَللهِ؟ قَالَ: «بِكُفْرِهِنَّ». قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاَللهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ اَلْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ اَلْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَىٰ إِحْدَاهُنَّ اَلدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»(٢).

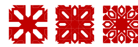
الشرح

قوله: (سِبَابُ) السب: التكلم في عرض الإنسان بما يعيبه. (فُسُوقٌ) الفسق: الخروج عن الطاعة وواجب الشرع، وهذا يدل علىٰ أن المعاصي تضر بالإيمان خلافًا للمرجئة.

قوله: (وَقِتَالُهُ كُفْرٌ) علىٰ ما سبق تأويله(٣).

قوله: (قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاَللهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ اَلْعَشِيرَ) وفيه جواز إطلاق الكفر علىٰ غير الكفر بالله تعالىٰ، ككفر النعمة وكفر الحقوق.

و**قوله:** (اَلْعَشِير) أي: المعاشر، وهو الزوج.



---

(١) حسن لغيره. سند المؤلف ضعيف، ولكن للحديث شاهد في "الصحيحين" أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صحيح. في "الصحيحين" عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، تقدم برقم (٦٤) من ترقيم الكتاب.

(٣) "البحر الثجاج" (٢/ ٤٣٤-٤٣٦).

٣١- باب فِي ذِكْرِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ النِّفَاقِ

(٨٢/ ١٦٥) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)[1].

الشرح

النفاق من الأعمال المنافية للإيمان والمخالفة للعقيدة الصحيحة، ولذلك اعتنىٰ كثير ممن ألَّف في العقيدة ببيان خطره وضرره، وأول فرقة مارقة ظهرت هم أتباع المنافق عبد الله بن سبأ الذي أسس مذهب الرفض، وأنشأ مذهب الخوارج السبئية الذين قتلوا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسيأتي من كلام المؤلف تعريف النفاق لغة وشرعـًا، فأغنىٰ عن ذكره هنا، وقد تكلمنا عليه في شرح "القول المفيد" – الكبير – ولله الحمد والمنة.

والمؤلف ذكر هذا الباب للرد علىٰ الخوارج كما سيأتي في الباب (٣٣).

(مُنَافِقًا خَالِصًا) شديد الشبه بأهل النفاق الاعتقادي.

(إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ) أي: كلما حدث كذب، أو كثر في حديثه الكذب.

(وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ) أي: كثير الخلف للوعد.

(وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ) إذا عاهد عدوًّا أو ذمِّيًّا، أو مسلمًا من باب أولىٰ... غدر به، والغدر محرم في جميع الرسالات، والغدر خدعة في محل الائتمان.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) أي: مال عن الحق وبالغ في الخصومة.

قال النووي رحمه الله تعالىٰ: أجمع العلماء علىٰ أن من كان مصدِّقًا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفره ولا هو مخلد في النار[(١)].



(١) "شرح مسلم" (٢/ ٤٠-٤١)، وانظر "عقيدة التوحيد" (١٠٧-١٠٩).

(٨٣/ ١٦٦) وَعَنِ اَلْحَسَنِ اَلْبَصْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَلَّىٰ وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اُئْتُمِنَ خَانَ»(١).

(٨٤/ ١٦٨) عَنْ عَرِيبٍ اَلْهَمْدَانِيِّ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا إِذَا دَخَلْنَا عَلَىٰ اَلْأُمَرَاءِ زَكَّيْنَاهُمْ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ دَعَوْنَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّ ذَلِكَ اَلنِّفَاقَ»(٢).

(٨٥/ ١٦٩) عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «اَلْغِنَاءُ يُنْبِتُ اَلنِّفَاقَ فِي اَلْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ اَلْمَاءُ اَلزَّرْعَ»(٣).

الشرح

(٨٣/ ١٦٦) شرحه كالذي قبله.

قوله: (كُنَّا نَعُدُّ ذَلِكَ اَلنِّفَاقَ) لأن النفاق أن يظهر ما لا يبطن، وهذا مثله.

قوله: (اَلْغِنَاءُ) المحرَّم الذي فيه وصف النساء أو التغزل ونحو ذلك.

(يُنْبِتُ اَلنِّفَاقَ) فيفسد القلب، فيتظاهر صاحبه بالصلاة وباطنه فاسد مليء بحب المنكرات والتكاسل عن الطاعات، وهذا مشاهد عند مدمني سماع الأغاني.



---

(١) مرسل. وهو في "الصحيحين" عن أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، واللفظ لمسلم في رواية نحوه.

(٢) سند المؤلف ضعيف، وهو في "البخاري" بمعناه: أخرجه البخاري (٧١٧٨).

(٣) سند المؤلف ضعيف، وقد جاء من وجه آخر: أخرجه البيهقي (١٠/ ٢٢٣)، والمروزي في "الصلاة" (٦٨٠) وغيرهما، عن إبراهيم، عن عبد الله، وهو منقطع. وانظر "تحريم المعازف" للألباني (ص ١٠)، فقد صححه موقوفًا، و"شرح علل الترمذي" (٢/ ٥٤٢).

وَالنِّفَاقُ لَفْظٌ إِسْلَامِيٌّ لَمْ تَكُنْ اَلْعَرَبُ قَبْلَ اَلْإِسْلَامِ تَعْرِفُهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ "نَافِقِ اَلْيَرْبُوعِ" وَهُوَ جُحْرٌ مِنْ جُحُورِهِ يَخْرُجُ مِنْهُ إِذَا أُخِذَ عَلَيْهِ اَلْجُحْرُ اَلَّذِي فِيهِ دَخَلَ. فَيُقَالُ قَدْ نَفَقَ وَنَافَقَ. وَمُنَافِقٌ: يَدْخُلُ فِي اَلْإِسْلَامِ بِاللَّفْظِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ بِالْعَقْدِ، شَبِيهٌ بِفِعْلِ اَلْيَرْبُوعِ؛ لِأَنَّهُ يَدْخُلُ مِنْ باب وَيَخْرُجُ مِنْ باب، فَمَا كَانَ مِنَ اَلْأَحَادِيثِ فِيهَا ذِكْرُ اَلنِّفَاقِ وَلَيْسَ مَعْنَاهَا أَنَّ مَنْ فَعَلَ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ فِيهَا فَهُوَ مُنَافِقٌ كَنِفَاقِ مَنْ يُظْهِرُ اَلْإِسْلَامَ وَيُسِرُّ اَلْكُفْرَ أَنَّهَا مَعْنَاهَا أَنَّ هَذِهِ اَلْأَفْعَالَ وَالْأَخْلَاقَ مِنْ أَخْلَاقِ اَلْمُنَافِقِينَ وَشِيَمِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ، هَذَا وَمِثْلُهُ.

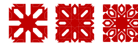
الشرح

* النفاق قسمان:

أكبر: وهو أن يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

وأصغر: وهو ما ذكر في الأحاديث ممن يبطن الإسلام.

فالأول كفر أكبر، والثاني صاحبه مسلم فاسق[(١)].



(١) انظر "عقيدة التوحيد" (ص ١٠٦).

٣٢- باب مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الْبَرَاءَةِ

(٨٦/ ١٧١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»(١).

(٨٧/ ١٧٢) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُمْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ اِنْتَهَبَ نُهْبَةً فَلَيْسَ مِنَّا»(٢).

الشرح

هذا الباب ذكره للرد علىٰ الخوارج أيضًا كما سيوضحه في الباب الذي بعده.

قوله: (لَيْسَ مِنَّا) اختلف في معناه علىٰ أقوال:

قيل: ليس علىٰ طريقتنا ولا علىٰ شريعتنا، إذا سنة المسلمين التواصل والتراحم، لا التقاطع والتقاتل، وتكون فائدته الزجر والردع.

وقيل: هو محمول علىٰ المستحل بغير تأويل فيكفر.

وقيل: معناه: ليس علىٰ سيرتنا الكاملة وهدينا.

وقيل: يمسك عن تأويله ليكون أوقع في النفوس. قاله ابن عيينة وغيره.

وقيل: (ليس منا) ليس مؤمنًا كاملاً، بل ناقص الإيمان عاص، فليس هو من أهل الإيمان والتقوىٰ لنقص إيمانه وفسقه(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١).

(٢) حسن. أخرجه أبو داود (٢٧٠٣)، وأحمد (٥/ ٦٢).

(٣) انظر "الفتاوىٰ" (١٩/ ٢٩٣)، "البحر الثجاج" (٣/ ٢٠٨-٢١٠)، "الفتح" حديث (٧٠٧٠).

والخوارج تقول: (ليس منا) أي: ليس مسلمـًا، بل كافر علىٰ كل حال.

والمرجئة تقول: (ليس منا) ليس من خيارنا وإن كان مؤمنـًا كاملاً.

والحق وسط كما سبق، فهو في حق المستحل كفر، وفي حق الموحد عصيان.



(٨٨/ ١٧٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

(٨٩/ ١٧٤) عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ، وَمَنْ خَبَّبَ عَلَىٰ اِمْرِئٍ زَوْجَتَهُ أَوْ مَمْلُوكَهُ فَلَيْسَ هُوَ مِنَّا».

قَالَ مُحَمَّدٌ: مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: مَعْنَىٰ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ لَيْسَ مِثْلَنَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهَا: أَنَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ فَلَيْسَ مِنَ الْمُطِيعِينَ لَنَا وَلَيْسَ مِنَ الْمُقْتَدِينَ بِنَا وَلَا مِنَ الْمُحَافِظِينَ عَلَىٰ شَرَائِعِنَا.

هَذِهِ النُّعُوتُ وَمَا أَشْبَهَهَا، إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِهَا التَّبَرُّؤ مِمَّنْ فَعَلَهَا، وَأَمَّا أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ فَيَكُونَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْمِلَّةِ فَلَا.

(٩٠/ ١٧٥) قَالَ مُحَمَّدٌ: وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ صِحَّةِ هَذَا التَّأْوِيلِ وَاللهُ أَعْلَمُ قَوْلُهُ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَأْخُذْ شَارِبَهُ»(١).

فَهَلْ يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَأَوَّلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ التَّبَرُّؤ مِمَّنْ لَمْ يَأْخُذْ شَارِبَهُ.

الشرح

وهذا كلام نفيس فيه رد علىٰ الخوارج الذين يؤولونه: ليس من المسلمين.

والصواب: أنه مسلم فاسق، ولا يفسر بالخروج من الملة إلا بدليل؛ كالاستحلال ونحوه.

(التَّبَرُّؤ مِمَّنْ لَمْ يَأْخُذْ شَارِبَهُ) بمعنىٰ تكفيره كما تزعم الخوارج.

والحديث دليل علىٰ وجوب الأخذ من الشارب، لأن إطالته تشبه بالمجوس، ولذلك عدَّه بعض العلماء من الكبائر.



(١) صحيح. أخرجه الترمذي (٢٧٦١)، وأحمد (٤/ ٣٦٦) وغيرهما، وصححه الشيخان.

٣٣- باب مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي شُبِّهَ فِيهَا الذَّنْبُ بِأَجْزَاءٍ أَكْبَرَ مِنْهُ أَوْ قُرِنَ بِهِ

(٩١/ ١٧٦) عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ يَسْأَلُهُ عَنْ الْكَبَائِرِ فَقَالَ: أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، وَأَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الفرقان:٦٨][١].

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَمَا كَانَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي شُبِّهَ الذَّنْبُ بِأَجْزَاءٍ أَعْظَمَ مِنْهُ أَوْ قُرِنَ بِهِ فَالْمَعْنَى فِيهَا: أَنَّ مَنْ أَتَى شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الذُّنُوبِ فَقَدْ لَحِقَ بِمَنْ شُبِّهَ بِهِ فِي لُزُومِ اِسْمِ الْمَعْصِيَةِ بِهِ إِلَّا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي الْإِثْمِ عَلَى قَدْرِ ذَنْبِهِ.

وَبِتَحْرِيفِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ الْمَعَانِيَ لِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي سَطَّرْتُهَا لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ وَالْأَبْوَابِ الْأَرْبَعَةِ قَبْلَهُ، وَتَفْسِيرِهِمْ لَهَا بِآرَائِهِمْ نَفَوْا أَهْلَ الذُّنُوبِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ الْإِيمَانِ وَكَفَّرُوهُمْ وَحَجَبُوهُمْ الِاسْتِغْفَارَ، وَلَمْ يُوَالُوهُمْ.

وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللهَ الْمُعَافَاةَ مِمَّا اِبْتَلَاهُمْ بِهِ، وَنَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَى طَاعَتِهِ وَالتَّوْفِيقَ لِمَرْضَاتِهِ.

الشرح

هذا هو الباب الخامس في الرد على الخوارج.

(نِدًّا) نظيراً ومثيلاً، فالشرك أعظم الذنوب وأظلمها. (حَلِيلَةَ جَارِكَ) زوجه أو أمته.

والشاهد منه: اقتران القتل والزنى بالشرك، وأهل السنة على أن الكبائر دون الشرك والكفر لا تخرج من الملة، خلافًا للخوارج كما وضحه المؤلف.

****

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) نحوه.

٣٤- باب في الوَعْدِ والوَعِيدِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ: أَنَّ ٱلوَعْدَ فَضْلُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَنِعْمَتُهُ، وَالْوَعِيدَ عَدْلُهُ وَعُقُوبَتُهُ، وَأَنَّهُ جَعَلَ ٱلْجَنَّةَ دَارَ ٱلْمُطِيعِينَ بِلَا إِسْتِثْنَاءٍ، وَجَهَنَّمَ دَارَ ٱلْكَافِرِينَ بِلَا إِسْتِثْنَاءٍ، وَأَرْجَىٰ لِمَشِيئَتِهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْعَاصِينَ مَنْ شَاءَ، وَٱللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ فِعْلِهِ.

وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ فِيمَا وَعَدَ بِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْمُطِيعِينَ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء:١٣].

وَقَالَ فِي ٱلْعُصَاةِ وَالْكَافِرِينَ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤].

وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء:٥٦-٥٧].

وَقَالَ: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١١٩-١٢٢].

وَقَالَ فِي ٱلْمُرَجِّينَ لِمَشِيئَتِهِ مِنْ ٱلْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وَقَالَ: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾

[الإسراء:٥٤]، فَوَعْدُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٱلْمُطِيعِينَ صِدْقٌ، وَوَعِيدُهُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ حَقٌّ، وَمَنْ مَاتَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُصِرًّا عَلَىٰ ذَنْبِهِ فَهُوَ فِي مَشِيئَتِهِ وَخِيَارِهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَسَوَّرَ عَلَىٰ ٱللهِ فِي عِلْمِ غَيْبِهِ وَبِجُحُودِ قَضَائِهِ، فَيَقُولُ أَبَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَغْفِرَ لِلْمُصِرِّينَ، كَمَا أَبَىٰ أَنْ يُعَذِّبَ ٱلتَّائِبِينَ، ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦].

الشرح

الوعد: النصوص المتضمنة وعد الله تعالىٰ لأهل طاعته بالثواب والجزاء الحسن والنعيم المقيم.

والوعيد: النصوص التي فيها توعُّد للعصاة بالعذاب والنكال.

فالمرجئة غلَّبوا نصوص الوعد وأغفلوا نصوص الوعيد، وعكسهم تماماً الخوارج والمعتزلة، ويسمون (الوَعيدية) غلَّبوا نصوص الوعيد، وقالوا: لابد أن ينجز الله وعده ووعيده، ولا يصح أن يخلف أيًّا منهما، ويحملون نصوص الوعد علىٰ من لم يقع في كبيرة من الكبائر – علىٰ حد الكبيرة عندهم –، ونصوص الوعيد علىٰ أهل الكبائر والشرك، ويعتقد أن مرتكب الكبيرة كافر – كما سبق بيانه في الباب (٢٩) –.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: والخوارج والمعتزلة يقولون: إن صاحب الكبيرة يخلد في النار، ثم إنهم قد يتوهمون في بعض الأخيار أنه من أهل الكبائر كما توهم الخوارج في عثمان وعلي وأتباعهم أنهم مخلدون في النار(١).

ومذهب أهل السنة وسط بين المرجئة والوعيدية، يعملون بجميع النصوص.

(١) الفتاوىٰ (٤/ ٤٧٥-٤٧٦).

قال شيخ الإسلام: وهم – أهل السنة – لا يكفِّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج[١].

ونقل ابن أبي العز اتفاق أهل السنة علىٰ ذلك.

وأهل السنة يقولون: مرتكب الكبيرة تحت مشيئة الله تعالىٰ، إن شاء أنفذ فيه وعيده، وإن شاء عفا عنه، فله الأمر كله من قبل ومن بعد، ومن دخل النار من أهل الكبائر لا يخلَّد فيها، كما سبق في باب الشفاعة[٢].

قوله: (اَلْجَنَّةَ دَارَ اَلْمُطِيعِينَ بِلَا اِسْتِثْنَاءٍ) يعني: أن الله تعالىٰ وعد المطيعين بالجنة، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: واتفقوا علىٰ أن الله تعالىٰ إذا وعد عباده بشيء كان وقوعه واجبًا بحكم وعده، فإن الصادق في خبره الذي لا يخلف وعده[٣].

وقال[٤]: وأما الاستحقاق فهم يقولون: إن العبد لا يستحق بنفسه علىٰ الله شيئًا، وليس له أن يوجب علىٰ ربه شيئًا، لا لنفسه ولا لغيره، ويقولون: إنه لابد أن يثيب المطيعين كما وعد، فإنه صادق في وعده ولا يخلف الميعاد... اهـ

قوله: (وَجَهَنَّمَ دَارَ اَلْكَافِرِينَ بِلَا اِسْتِثْنَاءٍ) أي: خالدين فيها أبداً، لا تفنىٰ ولا يخرجون منها، ولا يموتون فيها – كما سبق في بابه – لأنهم حق عليهم وعيد الله تعالىٰ، قال تعالىٰ:

---

(١) "الفتاوىٰ" (٣/ ١٥١).

(٢) انظر "وسطية أهل السنة" لباكريم ص (٣٥٣-٣٥٨)، "التكفير وضوابطه" للرحيلي (١٧٣-٢٢٢).

(٣) "منهاج السنة" (١/ ٤٤٨).

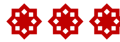
(٤) ص (٤٦٨).

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق:١٤]، وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:٢٩]، فوعيد الله تعالىٰ في حق الكفار لا يبدل(١).

قوله: (وَأَرْجَىٰ لِمَشِيئَتِهِ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ اَلْعَاصِينَ مَنْ شَاءَ) من شاء عفا عنه ومن شاء عذبه، ثم مآلهم الجنة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢).

قوله: (وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَسَوَّرَ عَلَىٰ اَللهِ فِي عِلْمِ غَيْبِهِ) وفي نسخة: (فِي عِلْمٍ غَيَّبَهُ) بالتشديد، أي: يدعي أن الله تعالىٰ حكم لفلان بالجنة أو النار بدون دليل شرعي، فإن هذا من علم الغيب، فمن ادعاه كفر.

وقوله: (وَبِجُحُودِ قَضَائِهِ) الكوني في عذاب الكفار وخلودهم في النار، أو يجحد خروج الموحدين من النار، وقد قضىٰ الله تعالىٰ ذلك، لا كما تقول الخوارج والمعتزلة ومن سار في فلكهم، أو يجحد دخول بعض عصاة الموحدين النار بسبب ذنوبهم كما تقول المرجئة، وقد قضىٰ الله سبحانه ذلك، والله أعلم.



(١) انظر "الفتاوىٰ" (١٤/ ٤٩٨).

(٢) انظر "الفتاوىٰ" (٣/ ٣٧٤، ٣٧٥)، و(٨/ ٢٧٠-٢٧١).

(٩٢/ ١٧٩) عَنْ عُبَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «بَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا، فَمَنْ وَفَّىٰ مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اَللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اَللهُ فَذَلِكَ إِلَىٰ اَللهِ: إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»(١).

(٩٣/ ١٨٠) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ اَلصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اَللهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اَللهُ عَلَىٰ اَلْعِبَادِ، مَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا جَاءَ وَلَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ اَلْجَنَّةَ، وَمَنْ اِنْتَقَصَ مِنْ حَقِّهِنَّ شَيْئًا جَاءَ وَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اَللهِ عَهْدٌ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ اَلْجَنَّةَ»(٢).

(٩٤/ ١٨٢) عَنِ اَلْأَصْمَعِيِّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي عَمْرِو بْنِ اَلْعَلَاءِ فَجَاءَهُ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو هَلْ يُخْلِفُ اَللهُ اَلْمِيعَادَ؟ قَالَ: لَا.

قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذَا وَعَدَ عَلَىٰ عَمَلٍ ثَوَابًا يُنْجِزُهُ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَكَذَلِكَ إِذَا وَعَدَ عَلَىٰ عَمَلٍ عِقَابًا؟

فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو رَضِيَ اَللهُ عَنْهُ: إِنَّ اَلْوَعْدَ غَيْرُ اَلْوَعِيدِ، إِنَّ اَلْعَرَبَ لَا تَعُدُّ خُلْفًا أَنْ تُوعِدَ شَرًّا فَلَا تَفِي بِهِ، وَإِنَّمَا اَلْخُلْفُ أَنْ تَعِدَ خَيْرًا فَلَا تَفِي بِهِ، ثُمَّ أَنْشَدَ:

وَلَا يَرْهَبُ اِبْنُ اَلْعَمِّ وَالْجَارُ صَوْلَتِي ... وَلَا أَنْثَنِي مِنْ خَشْيَةِ اَلْمُتَهَدِّدِ
وَإِنِّي إِذَا أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزٌ مَوْعِدِي(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٤)، ومسلم (الإمارة/ ١٧٠٩).

(٢) حسن. وسند المؤلف ضعيف، وأخرجه أبو داود (١٤٢٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧) وغيرهما، وصححه الألباني والوادعي.

(٣) صحيح. أخرجه الخرائطي في "مكارم الأخلاق" (١٨٨).

الشرح

قوله: (فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اَللهِ) فهذا وعده سبحانه.

قوله: (إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ) فهذا وعيده، إن شاء أنفذه، وإن شاء عفا عنه، وغفر له ولم يعذبه.

وقوله: (لَهُ عِنْدَ اَللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ اَلْجَنَّةَ) هذا وعده، والله تعالىٰ لا يخلف الميعاد.

وقوله: (وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ اَلْجَنَّةَ) أي: وإن شاء عذبه. فجعله تحت المشيئة.

وقوله: (أَبِي عَمْرِو بْنِ اَلْعَلَاءِ) هو البَصْرِيّ المقرئ، أحد الأئمة القراء السبعة، اختلف في اسمه.

وقوله: (عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ) رأس المعتزلة مبتدع ضال.



٣٥- باب فِي مَحَبَّةِ أَصْحَابِ اَلنَّبِيِّ ﷺ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنْ يَعْتَقِدَ اَلْمَرْءُ اَلْمَحَبَّةَ لِأَصْحَابِ اَلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنْ يَنْشُرَ مَحَاسِنَهُمْ وَفَضَائِلَهُمْ، وَيُمْسِكَ عَنْ اَلْخَوْضِ فِيمَا دَارَ بَيْنَهُمْ.

وَقَدْ أَثْنَى اَللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ ثَنَاءً أَوْجَبَ اَلتَّشْرِيفَ إِلَيْهِمْ بِمَحَبَّتِهِمْ وَالدُّعَاءِ لَهُمْ فَقَالَ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح:٢٩]، وَقَالَ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [الحشر:٨] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

الشرح

لا زال المؤلف يورد الأبواب في مسائل العقيدة المتعلقة بالأمة، ومن أعظمها مسألة (الصحابة)، وهذه المسألة حقيقة فرع عن المسألة الأولىٰ المذكورة في الأبواب السابقة، فمن طعن في الصحابة بنىٰ ذلك علىٰ تكفيرهم أو تفسيقهم، ومن غلا في أهل البيت بنىٰ ذلك علىٰ دعوىٰ عصمتهم وأحقيتهم بالخلافة ... إلخ.

وأهل السنة وسط بين الغالي والجافي.

قال الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نُفْرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونُبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان. اهـ[1].

---

(١) "الطحاوية".

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ: ومن السنة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن الذي شجر بينهم، فمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ أو واحداً منهم فهو مبتدع رافضي، حبهم سنة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآرائهم فضيلة(١).

وقال الصابوني رحمه الله تعالىٰ: فمن أحبهم وتولاهم ودعا لهم ورعىٰ حقهم وعرف فضلهم فاز في الفائزين، ومن أبغضهم وسبهم ونسبهم إلىٰ ما تنسبهم إليه الرافضة والخوارج فقد هلك في الهالكين(٢).

قوله: (وَيُمْسِكَ عَنْ اَلْخَوْضِ فِيمَا دَارَ بَيْنَهُمْ)، قال الصابوني أيضـًا: ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبـًا لهم ونقصـًا فيهم.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، كما وصفهم الله تعالىٰ به في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر:١٠]، وطاعة للنبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبـًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» ...

ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغُيِّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون ... اهـ المراد من "العقيدة الواسطية".

---

(١) "السنة" ص (٣٨).

(٢) "عقيدة السلف" للصابوني ص (٨٦-٩٣).

والخوض في تلك الأحاديث يولد البغض للصحابة أو بعضهم، وذلك هو النفاق، ثم هذا الخائض نصب نفسه حكمـًا علىٰ الصحابة، وتألَّىٰ علىٰ الله تعالىٰ في الحكم عليهم، واستباح أعراضهم، وكل هذا خطره عظيم، ومرتعه وخيم.

قوله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩] الآية. في هذه الآية أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم ووصفهم بالشدة علىٰ أعدائه تعالىٰ، والرحمة للمؤمنين، وحسن عبادتهم، وإخلاصهم لله تعالىٰ، ثم ختمها بالوعد بالمغفرة لهم والأجر العظيم في جنات النعيم.

وأفادت الآية أن من كان في قلبه غيظ علىٰ الصحابة فقد شابه الكفار: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، وذلك ردٌّ علىٰ الروافض والخوارج والمعتزلة وسائر المنحرفين في ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ الآية. يستفاد من هذه الآية: علو مرتبة المهاجرين والأنصار علىٰ سائر الصحابة، وأن المهاجرين الأُوَل أفضل؛ لأن الله تعالىٰ قدَّم ذكرهم، ولأنهم جمعوا بين الهجرة والنصرة.

والصحابة جميعـًا أوجب الله تعالىٰ لهم رضاه وفضله، وبشرهم بالفلاح في الدنيا والآخرة ... وإن رغمت أنوف الروافض والخوارج.



(٩٥/ ١٨٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي مِنْهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»(١).

الشرح

الحديث صريح أن خير هذه الأمة هم الصحابة رضي الله عنهم.

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالىٰ: فمن أضل ممن يكون في قلبه غلٌّ علىٰ خيار المؤمنين وسادات أولياء الله تعالىٰ بعد النبيين(٢).



(١) أخرجه مسلم (٢٥٣٤).

(٢) ص (١٢٠٦).

(٩٦/ ١٨٦) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِذَا ذُكِرَ اَلْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَتْ اَلنُّجُومُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا»(١).

(٩٧/ ١٨٧) عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: ثَلَاثَةٌ اُرْفُضُوهُنَّ: مُجَادَلَةُ أَصْحَابِ اَلْأَهْوَاءِ، وَشَتْمُ أَصْحَابِ رَسُولِ اَللهِ ﷺ، وَالنَّظَرُ فِي اَلنُّجُومِ(٢).

الشرح

تقدم الكلام علىٰ القدر في بابه، ومعنىٰ قوله: (فَأَمْسِكُوا) لا تخوضوا فيه.

وقوله: (وَإِذَا ذُكِرَتْ اَلنُّجُومُ فَأَمْسِكُوا) يفسرها الأثر، أي: كفوا عن النظر في النجوم، والمراد: النهي عن علم النجوم والتنجيم الذي يدَّعيه المنجمون، وهو شعبة من السحر، وقد فصلنا الكلام عليه في شرح "القول المفيد" الكبير.

وقوله: (وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا) أي: عن الطعن فيهم، كما في الأثر، فهو يعتبر شرحًا للحديث(٣).



---

(١) حسن لغيره، سند المؤلف ضعيف، لكن للحديث شواهد، انظر "الصحيحة" (٣٤).

(٢) صحيح. أخرجه أحمد في "فضائل الصحابة" (١٩) بسند صحيح.

(٣) انظر "الفتاوىٰ" (٤/ ٤٣١- وما بعده).

(٩٨/ ١٨٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «دَعُوا لِي أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلَ أُحُدٍ لَمْ يَبْلُغْ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

الشرح

سب الصحابة أو أحدهم حرام بالكتاب والسنة واتفاق الأئمة، كما قال شيخ الإسلام(٢).

وقال النووي رحمه الله تعالىٰ: واعلم أن سب الصحابة رضي الله عنهم حرام من فواحش المحرمات، سواء من لابس الفتن منهم وغيره(٣).

وقوله: (لَمْ يَبْلُغْ مُدَّ أَحَدِهِمْ ...) أي: في الأجر؛ لأن نفقتهم كانت في وقت الضرورة، وأضف إلىٰ ذلك قوة إيمانهم وإخلاصهم، ولأن إنفاقهم كان في نصرة الرسول ﷺ والإسلام، وكذا جهادهم وسائر أعمالهم(٤).

* حكم ساب الصحابة:

اختلف العلماء علىٰ أقوال:

١- ذهب جمع من أهل العلم إلىٰ تكفيره وحل قتله، إلا أن يتوب ويترحم عليهم، وهو قول بعض الشافعية وبعض الحنفية وبعض الحنابلة وغيرهم.

٢- ذهب آخرون إلىٰ أنه يُفسَّق ويُضَلَّل، ولا يعاقب بالقتل، بل يعزَّر تعزيراً شديداً، وهذا قول مالك وأحمد ... وغيرهما، وهو قول أكثر العلماء، ولكل فريق أدلة(٥).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) نحوه.

(٢) "الصارم" (ص ٥٠٦)، "الفتاوىٰ الكبرىٰ" (٣/ ٤٤٦).

(٣) "شرح مسلم" (١٦/ ٧٥).

(٤) "شرح مسلم" (١٦/ ٧٦).

(٥) انظر "عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام" (٢/ ٨٥٦ وما بعده).

* وقد فصَّل الإمام ابن عثيمين المسألة بكلام حسن، فقال:

سب الصحابة علىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: أن يسبهم بما يقتضي كفرهم أو أكثرهم، أو أن عامتهم فسقوا، فهذا كفر؛ لأنه تكذيب لله ورسوله بالثناء عليهم والترضي عنهم، بل من شك في كفر مثل هذا فإن كفره متعيَّن؛ لأن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفَّار أو فُسَّاق.

الثاني: أن يسبهم باللعن والتقبيح، ففي كفره قولان لأهل العلم، وعلىٰ القول بأنه لا يكفر يجب أن يجلد ويحبس حتىٰ يموت، أو يرجع عمَّا قال.

الثالث: أن يسبهم بما لا يقدح في دينهم، كالجبن والبخل، فلا يكفر، ولكنه يعزَّر بما يردعه عن ذلك[١].



(١) "شرح اللمعة" ص (٩٩)، وانظر المرجع السابق، و"جامع شروح الطحاوية" (٢/ ١٢١٢-١٢١٨).

(٩٩/ ١٨٩) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُقَاتِلٍ قَالَ: قَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ: مَنْ أَحَبَّ أَبَا بَكْرٍ فَقَدْ أَقَامَ اَلدِّينَ، وَمَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَوْضَحَ اَلسَّبِيلَ، وَمَنْ أَحَبَّ عُثْمَانَ اِسْتَنَارَ بِنُورِ اَللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَخَذَ بِالْعُرْوَةِ اَلْوُثْقَىٰ، وَمَنْ أَحْسَنَ اَلثَّنَاءَ عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اَللهِ ﷺ فَقَدْ بَرِئَ مِنْ اَلنِّفَاقِ(١).

الشرح

(فَقَدْ أَقَامَ اَلدِّينَ) لأن محبة أبي بكر الذي أقام الله تعالىٰ به الدين دلالة علىٰ محبة قيامه بالدين، والعكس بالعكس.

وقوله: (فَقَدْ أَوْضَحَ اَلسَّبِيلَ) لما كان عمر رضي الله عنه أوضح الله تعالىٰ به الإسلام وعز أهله؛ كان حب عمر دلالة علىٰ حب عز الإسلام ووضوحه، وبغضه بغض لعز الإسلام.

وقوله: (اِسْتَنَارَ بِنُورِ اَللهِ عَزَّ وَجَلَّ) لأن عثمان كان يلقب ذا النورين، وقد فتح الله تعالىٰ علىٰ يده كثيراً من البلاد، وانتشر فيها نور الدين.

وقوله: (أَخَذَ بِالْعُرْوَةِ اَلْوُثْقَىٰ) وهي الدين الحق؛ لأن الخوارج أبغضوه فمرقوا كما يمرق السهم من الرمية.

واحتمال أن هذه الأوصاف عائدة علىٰ الخلفاء، وعودها علىٰ من أحبهم أقرب.

قوله: (فَقَدْ بَرِئَ مِنْ اَلنِّفَاقِ) لأن حبهم إيمان، وبغضهم نفاق، كما سبق بيانه(٢).



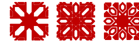
(١) حسن. وسند المؤلف ضعيف، وأخرجه اللالكائي (٢٣٣٣) نحوه، إلا أنه قال: عن عبد الصمد، عن حماد بن سلمة، عن أيوب به، وحماد وابن مقاتل محتج بهما.

(٢) وانظر "الصارم المسلول" ص (٥٨١-٥٨٢).

(١٠٠/ ١٩٠) عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ اَلْأَيْلِيِّ قَالَ: قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَيْسَ لِمَنْ اِنْتَقَصَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اَللهِ ﷺ فِي اَلْفَيْءِ حَقٌّ(١).

الشرح

استحسن العلماء هذا الاستنباط من مالك؛ لأن الله تعالىٰ ذكر الفيء في سورة الحشر، وقسم المؤمنين إلىٰ مهاجرين وأنصار، ومن بعدهم ممن يدعو لهم، فهؤلاء لهم حق في الفيء، وأما من سبَّهم فلا حظ له(٢).



(١) صحيح. أخرجه اللالكائي (٢٤٠٠) وغيره.

(٢) راجع "تفسير القرطبي" وغيره.

٣٦- باب فِي تَقَدُّمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنَّ أَفْضَلَ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّنَا ﷺ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَفْضَلَ اَلنَّاسِ بَعْدَهُمَا عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ.

الشرح

بعد أن ذكر فضل الصحابة علىٰ العموم خص الخلفاء، وعلىٰ هذا جرىٰ كثير من السلف؛ لأن الرافضة أشد عداءً للخلفاء الثلاثة، والخوارج أشد عداءً لعلي، رضي الله عنهم جميعـًا.

قال شيخ الإسلام: أما تفضيل أبي بكر ثم عمر، ثم عثمان وعلي، فهذا متفق عليه بين أئمة المسلمين المشهورين بالإمامة في العلم والدين من الصحابة والتابعين وتابعيهم ... وحكىٰ مالك إجماع أهل المدينة علىٰ ذلك، فقال: ما أدركت أحداً مما أقتدي به يشك في تقديم أبي بكر وعمر. وهذا مستفيض عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

وفي صحيح البخاري عن محمد بن الحنفية أنه قال لأبيه علي بن أبي طالب: يا أبتِ، من خير الناس؟ قال: أبو بكر ثم عمر. وهذا يروىٰ عن علي من نحو ثمانين وجهـًا ...

- إلىٰ قوله -: ولهذا كان أئمة الإسلام متفقين علىٰ تبديع من خالف في مثل هذه الأصول وأما عثمان وعلي فهذه دون تلك، فإن هذه قد حصل فيها نزاع، فإن طائفة من أهل الكوفة رجحوا عليًّا علىٰ عثمان، وهي رواية لمالك، لكن الرواية الأخرىٰ عنه تقديم عثمان علىٰ عليٍّ كما هو مذهب سائر الأئمة(١).

(١) (٤/ ٤٢١-٤٣٠) بتصرف.

(١٠١/ ١٩٢) عَنْ اِبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا نُفَاضِلُ وَرَسُولُ اَللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مُتَوَافِرُونَ فَنَقُولُ: رَسُولُ اَللهِ ﷺ فَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ نَسَكْتُ(١).

الشرح

هذا دليل صريح علىٰ تقديم عثمان علىٰ عليٍّ، والذين قالوا بتقديم علي أكثرهم رجع عن قوله، ومن أصر علىٰ رأيه لم يقبل منه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: وهو قول ضعيف مردود(٢).

وقال الدارقطني رحمه الله تعالىٰ: عثمان أفضل من علي باتفاق جماعة الصحابة، هذا قول أهل السنة، وهو أول عقد يحل من الرفض.

قال الذهبي: جمهور الأمة علىٰ ترجيح عثمان، وإليه نذهب(٣).

وقال شيخ الإسلام: وسائر أئمة السنة علىٰ تقديم عثمان، وهو مذهب جماهير أهل الحديث، وعليه يدل النص والإجماع والاعتبار(٤).

وهذا هو الذي استقر عليه عند أهل السنة(٥).

أما الخلافة فهي كما هو ترتيبهم، ومن قال: علي أحق من جميعهم أو أحق من عثمان فهو مبتدع ضال مخالف لإجماع المسلمين، بل هو رافضي.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٧) نحوه.

(٢) "الباعث الحثيث" (ص ١٨٣).

(٣) "السير" (١٦/ ٤٥٧).

(٤) "منهاج السنة" (١/ ١٦٦).

(٥) انظر "عقيدة أهل السنة في الصحابة" (١/ ٢٥٩-٢٦٤).

قال شيخ الإسلام: وهذا هو أصل مذهب الرافضة، ولهذا كان الرفض أعظم أبواب النفاق والزندقة، فإن الرجل يكون واقفًا ثم يصير مفضلاً، ثم يصير سبَّابًا، ثم يصير غاليًا، ثم يصير جاحداً معطلاً[١].



(١) (٤/ ٤٢٨).

(١٠٢/ ١٩٤) عَنْ أَبِي صَالِحٍ اَلْجُهَنِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ سُفْيَانَ الثَّورِيَّ: مَا تَقُولُ فِيمَنْ فَضَّلَ عَلِيًّا عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؟ فَقَالَ: أَزْرَىٰ عَلَىٰ اِثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اَللهِ ﷺ ، وَمَا أَخْوَفُنِي مَعَ هَذَا أَنْ لَا يَصْعَدَ لَهُ إِلَىٰ اَلسَّمَاءِ تَطَوُّعٌ(١).

(١٠٣/ ١٩٦) عَنِ اِبْنِ وَضَّاحٍ قَالَ: سَأَلْتُ يُوسُفَ بْنَ عَدِيٍّ فَقُلْتُ لَهُ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ أَفْضَلُ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَيْسَ يَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ إِلَّا مَنْ لَا يُعْبَأُ بِهِ، وَإِذَا أَرَدْتَ فَضْلَهُمَا فَانْظُرْ إِلَيْهِمَا مِمَّا جَعَلَهُمَا اَللهُ مَعَ نَبِيِّهِ فِي قَبْرٍ.

قَالَ: وَإِنَّمَا وَقَعَ اَلِاخْتِلَافُ فِي اَلتَّفْضِيلِ بَيْنَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَأَنَا أَقُولُ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، هَذَا رَأْيِي وَرَأْيُ مَنْ لَقِينَا مِنْ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ، وَلَا يَسَعُ اَلْقَوْلُ بِمَا سِوَىٰ ذَلِكَ(٢).

الشرح

قوله: (أَزْرَىٰ) بمعنىٰ طعن فيهم، كيف أجمعوا علىٰ تقديم عثمان؟! وهذا هو مقصد الرافضة وصريح لفظهم: الطعن في عدالة الصحابة ومروياتهم، والغاية هدم الإسلام، فالرافضة ليس لهم عقل ولا نقل، ولا دين ولا فضل، ولا دنيا منصورة(٣).



---

(١) حسن. أخرجه أبو داود (٤٦٣٠)، وصححه الألباني، إلا أنه سأله عن الولاية، ولفظه مختلف قليلاً.

(٢) حسن. وابن وضاح حسن الحديث أخطأ من ضعَّفه.

(٣) انظر "الفتاوىٰ" (٤/ ٤٢٩).

٣٧- باب فِي وُجُوبِ اَلسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنَّ اَلسُّلْطَانَ ظِلُّ اَللهِ فِي اَلْأَرْضِ، وَأَنَّهُ مَنْ لَمْ يَرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ سُلْطَانًا بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا فَهُوَ عَلَىٰ خِلَافِ اَلسُّنَّةِ.

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، وَفَسَّرَ أَهْلُ اَلْعِلْمِ هَذِهِ اَلْآيَةَ بِتَفَاسِيرَ تَئُولُ إِلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ إِذَا تَعَقَّبَهَا مُتَعَقِّبٌ.

كَانَ اَلْحَسَنُ يَقُولُ: هُمْ اَلْعُلَمَاءُ، وَكَانَ اِبْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: هُمْ أُمَرَاءُ اَلسَّرَايَا، كَانَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا، وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يُخَالِفُوهُ وَأَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيُطِيعُوا.

وَكَانَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ يَقُولُ: هُمْ اَلْوُلَاةُ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ بَدَأَ بِهِمْ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] يَعْنِي: اَلْفَيْءَ وَالصَّدَقَاتِ اَلَّتِي اِسْتَأْمَنَهُمْ عَلَىٰ جَمْعِهَا وَقَسْمِهَا. ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، قَالَ: فَأَمَرَ اَلْوُلَاةَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا نَحْنُ فَقَالَ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيكُمْ مَالٌ، قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩] عَاقِبَةً.

الشرح

عقد المؤلف أربعة أبواب في شأن الولاة، هذا أولها، وهي من أهم مسائل العقيدة، إذ جميع أهل الأهواء يخالفون الحق في هذا، كما سيأتي بيانه، وهي أول بدعة حدثت. [بدعة الخوارج].

قال البربهاري رحمه الله تعالىٰ: والسمع والطاعة للأئمة فيما يحب الله ويرضىٰ، ومن ولي الخلافة بإجماع الناس عليه ورضاهم به فهو أمير المؤمنين، ولا يحل لأحد أن يبيت ليلة

ولا يرىٰ عليه إمامـًا، برًّا كان أو فاجراً[١].

وقال أبو حاتم وأبو زرعة رحمهما الله تعالىٰ: ولا نرىٰ الخروج علىٰ الأئمة ولا القتال في الفتنة، ونطيع لمن ولَّاه الله أمره، ولا ننزع يداً من طاعة[٢].

وقال ابن قدامة في "اللمعة" رحمه الله تعالىٰ: ومن السنة السمع والطاعة لأئمة المسلمين وأمراء المؤمنين برهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية؛ فإنه لا طاعة لأحد في معصية الله.

وقال الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: ولا نرىٰ الخروج علىٰ أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرىٰ طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة.

وقال شيخ الإسلام - غفر الله تعالىٰ له -: وأما أهل العلم والدين والفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهىٰ الله عنه من معصية ولاة الأمور وغشهم والخروج عليهم بوجه من الوجوه كما قد عُرِف من عادات أهل السنة قديمـًا وحديثـًا، ومن سيرة غيرهم[٣].

وقال الحافظ رحمه الله تعالىٰ: وقد أجمع الفقهاء علىٰ وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء[٤].

---

(١) "شرح السنة" ص (٢٩-٣٠).

(٢) "فتيا وجوابها في الاعتقاد" ص (٩٢).

(٣) (٣٥/ ١٢).

(٤) "الفتح" (١٣/ ١٧) ط. مكتبة الرياض.

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله تعالىٰ: إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمَّر علينا[١].

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله تعالىٰ: وجوب طاعة أولي الأمر، وهم العلماء والأمراء، وقد جاءت به السنة تبين أن هذه الطاعة لازمة، وهي فريضة في المعروف[٢].

وقال شيخنا الوادعي رحمه الله تعالىٰ: لا نرىٰ الخروج علىٰ حكام المسلمين مهما كانوا مسلمين، ولا نرىٰ الانقلابات سبباً للإصلاح، بل لإفساد المجتمع[٣].

قوله: (اَلسُّلْطَانَ ظِلُّ اَللهِ فِي اَلْأَرْضِ) معناه: أنه كالظل يأوي إليه من يريد النجاة من الظلمة، كما يأوي إلىٰ الظل من يريد النجاة من الحر، وقد ورد في ذلك أحاديث ضعيفة.

قوله: (فَهُوَ عَلَىٰ خِلَافِ اَلسُّنَّةِ) لأن أدلة القرآن والسنة تحث علىٰ طاعة ولاة الأمر، ومن مات بغير إمارة شرعية مات ميتة جاهلية، كما سيأتي برقم (٢٠٣).

قوله: (﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]) أي: وأطيعوا أولي أمركم، فإن طاعتهم من طاعة الله تعالىٰ ورسوله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر ... أما أولوا الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الله ورسوله[٤].



(١) "الأصول الستة".

(٢) "العلاقة بين الحاكم والمحكوم" ص (٧).

(٣) "هذه دعوتنا" رقم (١٣).

(٤) "بدائع التفسير" (٢/ ٢٤-٣١).

قَالَ مُحَمَّدٌ: فَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِوُلَاةِ اَلْأَمْرِ أَمْرٌ وَاجِبٌ وَمَهْمَا قَصَّرُوا فِي ذَاتِهِمْ فَلَمْ يَبْلُغُوا اَلْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ اَلْحَقِّ، وَيُؤْمَرُونَ بِهِ، وَيَدُلُّونَ عَلَيْهِ، فَعَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَىٰ رَعَايَاهُمْ مَا حُمِّلُوا مِنْ اَلسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَهُمْ.

الشرح

قوله : (وَالطَّاعَةُ لِوُلَاةِ اَلْأَمْرِ أَمْرٌ وَاجِبٌ) هذا بالإجماع كما سبق.

قوله : (فَلَمْ يَبْلُغُوا اَلْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ) في حق الرعية.

قوله : (غَيْرَ أَنَّهُمْ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ اَلْحَقِّ) يدعون: بضم الياء أو بفتحها، فالأول معناه: يُناصحون بالتي هي أحسن ويرشدون إلىٰ تعلم الحق والعمل به ونصرته.

وبالفتح معناه؛ أي: ما داموا يدعون رعاياهم إلىٰ الحق ويأمرونهم به، ويقيمون الشرع والحدود؛ وجبت طاعتهم والصبر عليهم ولو حصل منهم التقصير.



(١٠٤/ ١٩٩) عَنْ اِبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اَللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَزَالُ هَذَا اَلْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ فِي اَلنَّاسِ اِثْنَانِ»(١).

(١٠٥/ ٢٠٠) عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «اَلنَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا اَلْأَمْرِ خِيَارُكُمْ فِي اَلْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي اَلْإِسْلَامِ»(٢).

الشرح

هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر أن الخلافة مختصة بقريش، لا يجوز عقدها لأحد من غيرهم، وعلىٰ هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة، فكذلك من بعدهم، ومن خالف فيه من أهل البدع ومن غيرهم فهو محجوج بإجماع الصحابة والتابعين فمن بعدهم وبالأحاديث الصحيحة ... قال القاضي، ولا اعتداد بقول النظام ومن وافقه من الخوارج وأهل البدع أنه يجوز كونه من غير قريش(٣).

قوله: (مَا بَقِيَ فِي اَلنَّاسِ اِثْنَانِ) أشكل هذا؛ لأن الأمر قد خرج إلىٰ غيرهم.

والجواب: المراد بالحديث الأمر، والمعنىٰ: لا تعقدوا الإمامة الكبرىٰ إلا لقرشي ما بقي في الناس اثنان، فمن عقدها لغيرهم اختياراً فقد عصىٰ.

وقيل: إن المعنىٰ: لا تشرع عقد الإمامة إلا لقرشي.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠١)، ومسلم (١٨٢٠).

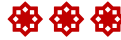
(٢) صحيح. أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (١١٢٩)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٦٩)، وأحمد (٤/ ١٠١)، وصححه العلامة الألباني، وهو في "الصحيح" عن أبي هريرة وجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أخرجه البخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨، ١٨١٩).

(٣) "شرح مسلم" (١٢/ ١٦٨).

رجح الأول الحافظ، واستظهر الثاني القرطبي[١].

وأما ما فعله السلطان العثماني من نقل الخلافة إليه في القرن التاسع، وإجبار الخليفة العباسي علىٰ التنازل له فهو غلط محض.

أما إذا غلب علىٰ الإمامة غيرهم وجب لهم الطاعة، كما سبق نقل الإجماع.



(١) انظر "شرح مسلم" للهرري (١٩/ ٤٣٧).

(١٠٦/ ٢٠١) عَنْ وَائِلٍ اَلْحَضْرَمِيِّ قَالَ: سَأَلَ يَزِيدُ بْنُ سَلَمَةَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا فَمَاذَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَجَذَبَهُ اَلْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ فِي اَلثَّالِثَةِ أَوْ فِي اَلثَّانِيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «اِسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ»(١).

(١٠٧/ ٢٠٢) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «إِنَّهَا سَتكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا». قُلْنَا: فَمَا تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ: «تُؤَدُّونَ اَلْحَقَّ اَلَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللهَ اَلَّذِي لَكُمْ»(٢).

الشرح

(إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا) من أمر الرعية دينًا ودنيًا.

(وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ) من وجوب طاعتهم في غير معصية الله تعالىٰ.

وقوله: (أَثَرَةٌ) هي الانفراد بالشيء عمن له فيه حق.

قوله: (وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا) تخالف الكتاب والسنة، وقد حصل ولا يزال.

قوله: (تُؤَدُّونَ اَلْحَقَّ ...) فيه الحث علىٰ السمع والطاعة وإن كان المتولي ظالمًا عسوفًا فيعطىٰ حقه من الطاعة ولا يُخرج عليه ولا يُخلع، بل يُتضرع إلىٰ الله تعالىٰ في كشف أذاه، ودفع شره وإصلاحه، ولا تسقط طاعتهم بظلمهم(٣).

---

(١) صحيح. أسانيد المؤلف في الباب ضعيفة، لكن الحديث أخرجه مسلم (١٨٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣).

(٣) قاله النووي (١٢/ ١٩٥، ١٩٧).

وقال الآجري رحمه الله تعالىٰ: لم يختلف العلماء قديمًا وحديثًا أن الخوارج قوم سوء[١]. ومن الخوارج هؤلاء المتحزبة في عصرنا.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: كان من أهل العلم والعدل المأمور به: الصبر علىٰ ظلم الأئمة وجورهم كما هو من أصول أهل السنة والجماعة، وكما أمر به النبي ﷺ في الأحاديث المشهورة عنه[٢].



(١) "الشريعة" ص (٢١) ط. الأشرف.

(٢) (٢٨/ ١٧٩).

(١٠٨/ ٢٠٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ إِلَّا مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»(١).

الشرح

(فَلْيَصْبِرْ) رد علىٰ الخوارج والحزبيين وأصحاب التفجيرات.

(يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ) أي: إمام المسلمين وجماعة المسلمين.

(... مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) أي: علىٰ صفة موتهم من حيث الفوضىٰ لا إمام لهم، أو ميتة مخالفة للإسلام وصاحبها عاصٍ فاسق؛ لأنه خرج عن تعاليم الإسلام إلىٰ طريقة الجاهلية.

وقوله: (شِبْرًا) كنىٰ به عن ذم الخروج عن السلطان ولو بأدنىٰ نوع من أنواع الخروج، أو بأقل سبب من أسباب الفرقة(٢).

والحديث صريح في إبطال إمامة وبيعة الخارج علىٰ الإمام، كما صرح به في قوله: «فُوا ببيعة الأول فالأول ...» الحديث. ومعناه: إذا بويع لخليفة بعد خليفة، فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها، وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها، ويحرم عليه طلبها. وسواء عقدوا للثاني عالمين بعقد الأول أو جاهلين، وسواء كانا في بلدين أو بلد، هذا هو الصواب الذي عليه جماهير العلماء(٣).



(١) أخرجه مسلم (١٨٤٩)، والبخاري (٧٠٥٣) نحوه.

(٢) انظر "شرح مسلم" (١٢/ ٤٠٠) وغيره.

(٣) قاله النووي (١٢/ ١٩٤).

(١٠٩/ ٢٠٤) عَنِ اَلْحَارِثِ اَلْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللهِ ﷺ قَالَ: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ أَمَرَنِي اَللهُ بِهِنَّ: اَلْجَمَاعَةِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اَللهِ، فَمَنْ فَارَقَ اَلْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ اَلْإِسْلَامَ مِنْ رَأْسِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ». فَقَالَ رَجُلٌ: وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، تَدَاعَوْا بِدَعْوَى اللهِ اَلَّذِي سَمَّاكُمْ اَلْمُسْلِمِينَ اَلْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اَللهِ»[١].

الشرح

(اَلْجَمَاعَة) أي: لزوم الجماعة.

وقال الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: ونرىٰ الجماعة حقًّا وصوابًا، والفُرْقة زيغًا وعذابًا[٢].

وقال ابن أبي العز رحمه الله تعالىٰ: والجماعة – جماعة المسلمين – وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين فاتباعهم هدىٰ وخلافهم ضلال[٣].

قوله: (... فَقَدْ خَلَعَ اَلْإِسْلَامَ مِنْ رَأْسِهِ) أي: شبَّه من خلع الجماعة أي: نزع يده منهم، شبهه بمن خلع ثوبًا كان عليه فأصبح عاريًا، وهذا ذمٌّ بليغ لو كان الخوارج والحزبيون يفقهون.

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالىٰ: وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب علىٰ الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر علىٰ جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور؛ فإن الله تعالىٰ ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل،

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) وغيره، وصححه الشيخان.

(٢) "الطحاوية".

(٣) "شرح الطحاوية" ص (٥٨٦) ط. ابن تيمية.

[الشورىٰ:٣٠](١).

قوله: (وَالْهِجْرَةِ) هي: الانتقال من بلد الكفر والشرك إلىٰ دار الإسلام، وهي مشروعة ما بقي الجهاد.

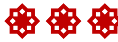
قوله: (وَالْجِهَاد فِي سَبِيلِ اَللهِ) وذلك يشمل قتال الكفار وقتال البغاة، وأعلىٰ مراتب الجهاد: الجهاد بالعلم وتبليغ الدين، والجهاد بالسيف، فمن جمعهما فقد حاز الشرف الرفيع.

قوله: (وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ) الجاهلية المراد هنا: ما قبل الإسلام، وكل أمر منسوب إلىٰ الجاهلية فإنه مذموم.

ودعوىٰ الجاهلية: تشمل العصبية والحزبية والفخر بالحسب وغيرها من أخلاق الجاهلية.

(جُثَا جَهَنَّمَ) الجُثا: الشيء المجموع، والمراد: من حطب جهنم.

قوله: (بِدَعْوَىٰ اَللهِ) أي: بما أمر الله تعالىٰ به من الأخوة والإيمان والإسلام، فالدين هو الجامع بينكم، لا النسب ولا العصبية ولا الحزبية، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].



(١) "شرح الطحاوية" ص (٥٨٥) ط. ابن تيمية

(١١٠/ ٢٠٥) عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ: أَخَذَ عُمَرُ بِيَدِي فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَيَّةَ، إِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلَّنَا لَا نَلْتَقِي بَعْدَ يَوْمِنَا هَذَا، اِتَّقِ اَللهَ رَبَّك إِلَىٰ يَوْمٍ تَلْقَاهُ كَأَنَّك تَرَاهُ، وَأَطِعْ اَلْإِمَامَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعًا، إِنْ ضَرَبَكَ فَاصْبِرْ، وَإِنْ أَهَانَك فَاصْبِرْ، وَإِنْ أَمَرَكَ بِأَمْرٍ يُنْقِصُ دِينَكَ فَقُلْ طَاعَةٌ: دَمِي دُونَ دِينِي، وَلَا تُفَارِقْ اَلْجَمَاعَةَ(١).

الشرح

قوله: (كَأَنَّكَ تَرَاهُ) هذا هو الإحسان وأعلىٰ رتب التقوىٰ.

(وَإِنْ كَانَ عَبْدًا ...) من شروط الإمام أن يكون حرًّا، لكن لو تغلب عليه عبد واستتب له الأمر وجبت له الطاعة.

قوله: (فَقُلْ طَاعَةٌ) كأن المعنىٰ: فقل قولاً لا يخرجك عن الطاعة، أو يكون الكلام هكذا: [فقل لا طاعة] وهذا أظهر، والله أعلم.

قوله: (دَمِي دُونَ دِينِي) أي: اصبر ولو قتلك، ولا ترضىٰ بنقص دينك، ولا تفارق الجماعة لأجل ظلم هذا الظالم.



---

(١) صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٥٤٤)، والبيهقي (٨/ ١٥٩) وغيرهما، بسند صحيح.

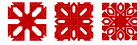
(١١١/ ٢٠٦) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ: لَمَّا بُويِعَ لِيَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: «إِنْ كَانَ خَيْرًا رَضِينَا، وَإِنْ كَانَ شَرًّا صَبَرْنَا»(١).

الشرح

وما قاله ابن عمر هو هدي السلف، ومن حصل منه خلاف كالحسين وغيره فقد أنكره السلف ولم يرضوه، وإن كانوا قد أنكروا قتل الحسين رضي الله عنه.

والله المستعان.

فالعبرة بالدليل، وأما الشخص فقد يخطئ، ولو كان من أهل الفضل.



---

(١) صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ١٠٠) بسند صحيح.

٣٨- باب فِي الصَّلَاةِ خَلْفَ الوُلَاةِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنَّ صَلَاةَ اَلْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَعَرَفَةَ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ بَـرٍّ أَوْ فَاجِرٍ مِنَ اَلسُّنَّةِ وَالْحَقِّ، وَأَنَّ مَنْ صَلَّىٰ مَعَهُمْ ثُمَّ أَعَادَهَا فَقَدْ خَرَجَ مِنْ جَمَاعَةِ مَنْ مَضَىٰ مِنْ صَالِحِ سَلَفِ هَذِهِ اَلْأُمَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ اَللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩]، وَقَدْ عَلِمَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ حِينَ اِفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ اَلسَّعْيَ إِلَيْهَا وَإِجَابَةَ اَلنِّدَاءِ لَهَا أَنَّهُ يُصَلِّيهَا بِهِمْ مِنْ مُجْرِمِي اَلْوُلَاةِ وَفُسَّاقِهَا مَنْ لَمْ يَجْهَلْهُ؛ فَلَمْ يَكُنْ لِيَفْتَرِضَ عَلَىٰ عِبَادِهِ اَلسَّعْيَ إِلَىٰ مَا لَا يَجْزِيهِمْ شُهُودُهُ وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ إِعَادَتُهُ، وَقُضَاتِهِمْ وَحُكَّامِهِمْ وَمَنْ اِسْتَخْلَفُوهُ عَلَىٰ اَلصَّلَاةِ، وَالصَّلَاةُ وَرَاءَهُمْ جَائِزَةٌ.

الشرح

مما يعتقده أهل السنة وجوب الحفاظ علىٰ الجماعة، ومن ذلك الصلاة خلف الولاة الظلمة المسلمين، وأبىٰ ذلك الخوارج ومن سار في فلكهم لاعتقادهم كفر الولاة الظلمة، ولهذا ذكرت هذه المسألة في العقيدة، وللرد علىٰ المبتدعة.

قال الإسماعيلي رحمه الله تعالىٰ في "اعتقاد أئمة الحديث"[(١)]: ويرون الصلاة – الجمعة وغيرها – خلف كل إمام مسلم برًّا كان أو فاجراً، فإن الله عز وجل فرض الجمعة وأمر بإتيانها مع علمه سبحانه وتعالىٰ بأن القائمين يكون منهم الفاجر والفاسق ولم يستثن وقتًا دون وقت ... اهـ

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ: وصلاة الجمعة خلفه وخلف من ولي جائزة تامة ركعتين، من أعادها فهو مبتدع تارك للآثار، مخالف للسنة، ليس له من فضل الجمعة شيء

---

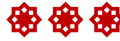
(١) (ص ٧٥).

إذا لم ير الصلاة وراء الأئمة من كانوا برهم وفاجرهم(١).

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يصلون خلف من يعرفون فجوره، كما صلىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة، وقد كان يشرب الخمر، وكان ابن عمر رضي الله عنهما وغيره من الصحابة يصلون خلف الحجاج بن يوسف(٢).

قوله: (فَقَدْ خَرَجَ مِنْ جَمَاعَةِ مَنْ مَضَىٰ ...) أي: أنه مبتدع؛ لأنه لا يتركها إلا إذا كان علىٰ رأي الخوارج المبتدعة أو نحوها من المبتدع.

قوله: (وَقَدْ عَلِمَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ حِينَ اِفْتَرَضَ ...) هذا التعبير فيه نظر؛ لأن علم الله عز وجل أزلي، فقد علم الله تعالىٰ ذلك أزلاً، وهذا هو مراد المؤلف، والله أعلم.



---

(١) أخرجه اللالكائي (١/ ١٦١).

(٢) "مجموع الرسائل" (٥/ ١٩٩) ط. الباز.

(١١٢/ ٢١٠) عَنْ اَلْأَعْمَشِ قَالَ: كَانَ كِبَارُ أَصْحَابِ عَبْدِ اللهِ يُصَلُّونَ اَلْجُمُعَةَ مَعَ اَلْمُخْتَارِ(١).

(١١٣/ ٢١٢) عَنْ اِبْنِ وَضَّاحٍ قَالَ: سَأَلْتُ حَارِثَ بْنَ مِسْكِينٍ: هَلْ نَدَعُ اَلصَّلَاةَ خَلْفَ أَهْلِ اَلْبِدَعِ؟ فَقَالَ: أَمَّا اَلْجُمُعَةُ خَاصَّةً فَلَا، وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنْ اَلصَّلَاةِ فَنَعَمْ.

قَالَ اِبْنُ وَضَّاحٍ: وَسَأَلْتُ يُوسُفَ بْنَ عَدِيٍّ عَنْ تَفْسِيرِ حَدِيثِ: «اَلصَّلَاةُ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ»، قَالَ: اَلْجُمُعَةُ خَاصَّةً، قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ اَلْإِمَامُ صَاحِبَ بِدْعَةٍ؟ قَالَ نَعَمْ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ؛ لِأَنَّ اَلْجُمُعَةَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ لَيْسَ تُوجَدُ فِي غَيْرِهِ(٢).

الشرح

(يُصَلُّونَ اَلْجُمُعَةَ مَعَ اَلْمُخْتَارِ) وهذا محمول علىٰ أنه قبل أن يظهر كفره بادعاء النبوة وغيرها، وأما بعد ظهور كفره لا تحل الصلاة خلفه.

(أَمَّا اَلْجُمُعَةُ خَاصَّةً فَلَا) وإنما خص الجمعة خشية التفرق والتمزق، وهذا إذا لم يوجد مسجد سنة، فإن وجد ترك مسجد البدعة.

ولا تترك الجمعة لأجل المبتدع، فإن هذا الترك بدعة.

وقال الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: ونرىٰ الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة.

وقد قال النبي ﷺ: «يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم»، رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما حديث: «الصلاة خلف كل بر وفاجر»، فلا يصح من جميع طرقه(٣).

---

(١) رجاله ثقات، وعبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) حسن.

(٣) "الإرواء" (٢/ رقم ٢٢٧).

٣٩- باب دَفْعِ اَلزَّكَاةِ إِلَى اَلْوُلَاةِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: أَنَّ دَفْعَ اَلصَّدَقَاتِ إِلَى اَلْوُلَاةِ جَائِزٌ، وَأَنَّ اَللهَ قَدْ جَعَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، وَفِي قَوْلِهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

الشرح

هذا الباب كالذي قبله في المعنىٰ.

ذكر أبو حاتم وأبو زرعة في عقيدتها: ودفع الصدقات من السوائم إلىٰ ولي الأمر من أئمة المسلمين. اهـ

فقد كانت الصدقات تدفع إلىٰ رسول الله ﷺ، ثم منعها بعض الأعراب فقاتلهم أبو بكر وقال: لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدونها إلىٰ رسول الله ﷺ لقاتلتهم علىٰ منعها، ثم كان الأمر بعدهم.

وصح الأمر بدفعها إلىٰ السلطان عن ابن عمر وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم من الصحابة، وعن غير واحد من التابعين، واتفق جماهير أهل العلم علىٰ أن السلطان إذا طلبها ودفعت إليه أجزأت.



(١١٤/ ٢١٣) عَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ اَلْأَعْرَابُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اَللهِ إِنَّ اَلْمُصَدِّقِينَ يَظْلِمُونَنَا. فَقَالَ: «أَرْضُوا مُصَدِّقِيكُمْ وَإِنْ ظَلَمُوا». قَالَ جَابِرٌ: فَمَا مَنَعْتُ مُصَدِّقًا مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اَللهِ ﷺ يَقُولُ هَذَا(١).

(١١٥/ ٢١٤) عَنْ أَبِي صَالِحٍ: أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ وَأَبَا سَعِيدٍ اَلْخُدْرِيَّ عَنْ اَلزَّكَاةِ أَيُنْفِذُهَا عَلَىٰ مَا أَمَرَ اَللهُ أَوْ يَدْفَعُهَا إِلَىٰ اَلْوُلَاةِ؟ قَالَ: بَلْ يَدْفَعُهَا إِلَىٰ اَلْوُلَاةِ(٢).

الشرح

(١١٤/ ٢١٣) قال الخطابي رحمه الله تعالىٰ: وفي هذا تحريض علىٰ طاعة السلطان وإن كان ظالمًا، وتوكيد لقول من ذهب إلىٰ أن الصدقات الظاهرة لا يجوز أن يتولاها المرء بنفسه، لكن يخرجها إلىٰ السلطان(٣).

(١١٥/ ٢١٤) وأما الخوارج فلا يرون دفع الزكاة إلىٰ الولاة؛ لأنهم عندهم كما هي عقيدة الخوارج.



---

(١) أخرجه مسلم (٨٩٠).

(٢) حسن. أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ١٥٦)، وعبد الرزاق (٤/ ٤٦)، وغيرهما نحوه، وسنده حسن، وقد سبق بيانه.

(٣) "معالم السنن" (٢/ ٢٠١)، وانظر كتاب "معاملة الحكام" لعبد السلام برجس ص (١٧٩-١٨٢).

٤٠- باب فِي الْحَجِّ والْجِهَادِ مَعَ الْوُلَاةِ

وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ اَلسُّنَّةِ: إِنَّ اَلْحَجَّ وَالْجِهَادَ مَعَ كُلِّ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ مِنْ اَلسُّنَّةِ وَالْحَقِّ، وَقَدْ فَرَضَ اَللهُ اَلْحَجَّ فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، وَأَعْلَمَنَا بِفَضْلِ اَلْجِهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، وَقَدْ عَلِمَ أَحْوَالَ اَلْوُلَاةِ اَلَّذِينَ لَا يَقُومُ اَلْحَجُّ وَالْجِهَادُ إِلَّا بِهِمْ فَلَمْ يَشْتَرِطْ وَلَمْ يُبَيِّنْ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا.

الشرح

وهذا الباب شأنه كالذي قبله، وفيه ردٌّ علىٰ الرافضة والخوارج.

قال الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم إلىٰ قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما.

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالىٰ: لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر، فلابد من سائس يسوس الناس فيهما ويقاوم العدو، وهذا المعنىٰ كما يحصل بالإمام البر يحصل بالإمام الفاجر(١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: ثم هم – أي: أهل السنة - ... يرون إقامة الحج والجمع والأعياد مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجّاراً، ويرون إقامة الجماعات والجهاد(٢).

وقد جاهد الصحابة مع يزيد بن معاوية، وكان أول من ركب البحر، وجاهدوا مع غيره من ملوك وأمراء، وجاهد التابعون مع الحجاج في غزو بلاد الروم والهند وخراسان.

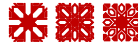
---

(١) "شروح الطحاوية" (٢/ ٩٨٦).

(٢) "الوسطية"

أما الخوارج فمذهبهم معروف، وأما الرافضة فيرون أن لا جهاد حتىٰ يخرج مهدي السرداب المزعوم، وكلاهما علىٰ ضلال.

وقال ابن المبارك رحمه الله تعالىٰ: ومن قال: الصلاة خلف كل بر وفاجر، والجهاد مع كل خليفة، ولم ير الخروج علىٰ السلطان بالسيف، ودعا لهم بالصلاح فقد خرج من قول الخوارج[(١)].



(١) "طبقات الحنابلة" (٢/ ٤٠)، وانظر كتاب "الورد المقطوف" للأثري ص (١٦٠-١٦٢) وغيره.

٤١- باب النَّهْيِ عَنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ

وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ السُّنَّةِ يَعِيبُونَ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ وَيُخَوِّفُونَ فِتْنَتَهُمْ وَيُخْبِرُونَ بِخَلَاقِهِمْ، وَلَا يَرَوْنَ ذَلِكَ غِيبَةً لَهُمْ وَلَا طَعْنًا عَلَيْهِمْ.

الشرح

بعد أن ذكر المؤلف فصولاً من عقائد السلف، أردفه بأحكام متعلقة بمن خالف معتقد السلف، وهم أهل الأهواء والبدع، فنهىٰ عن مجالستهم، ويدخل في ذلك النهي عن سماع أفكارهم وضلالاتهم، وعن أخذ العلم عنهم، والنهي عن مجادلتهم ... وقد ذكرنا الكثير الطيب في شرح "النهي عن البدع" لابن وضاح.

قوله: (وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ السُّنَّةِ ...) هذا يُشعر بإجماع أهل السنة علىٰ ذلك، وذلك وارد في كتاب الله تعالىٰ، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ...﴾ [الأنعام:٦٨]، قال ابن جرير رحمه الله تعالىٰ في آية النساء: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٤٠] في هذه الآية الدالة الواضحة علىٰ النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم. اهـ ومن السنة ما سيذكره المؤلف، كذا من الآثار.

وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالىٰ: وقد مضت الصحابة والتابعون وأتباعهم علماء السنة علىٰ هذا، مجمعين متفقين علىٰ معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: ومثل أئمة البدع فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين(١).

(١) (٢٨/ ٢٣١-٢٣٢).

قوله: (وَلَا يَرَوْنَ ذَلِكَ غِيبَةً لَهُمْ وَلَا طَعْنًا عَلَيْهِمْ) لأنه من النصح للدين وللمسلمين، وذلك واجب بإجماع العلماء، نقل الإجماع النووي وابن حبان والحافظ وشيخ الإسلام وغيرهم.

وقد أفردنا ذلك في رسالة "إقامة الحجة والدليل علىٰ خطأ من خلط الغيبة بالجرح والتعديل".



(١١٦/ ٢٢٣) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ...﴾ [آل عمران:٧] الْآيَةَ. ثُمَّ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَاحْذَرُوهُمْ»(١).

الشرح

من سمات أهل الأهواء: اتباع المتشابه.

«إِذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَاحْذَرُوهُمْ» والمراد بالمتشابه: ما كان غير واضح الدلالة علىٰ المعنىٰ المراد، وعدم الوضوح إنما هو بالنسبة للناظر فيها، فقد تشتبه علىٰ عالم دون آخر.

فأهل البدع يتعلَّقون بالمتشابه الذي يمكنهم التمويه علىٰ الجهال والأتباع بتحريف معانيه إلىٰ مقاصدهم الفاسدة، وهي الفتنة والإضلال للأتباع حتىٰ تقوىٰ البدع في قلوبهم.

وقوله: (فَاحْذَرُوهُمْ) نص صريح في الحذر من أهل الأهواء والبعد عنهم خوفًا من فتنتهم.



(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

(١١٧/ ٢٢٤) عَنْ أَبِي غَالِبٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ أَبِي أُمَامَةَ وَهُوَ عَلَىٰ حِمَارٍ حَتَّىٰ انْتَهَيْنَا إِلَىٰ دَرَجِ مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَإِذَا رُؤُوسٌ مِنْ رُؤُوسِ الْخَوَارِجِ مَنْصُوبَةٌ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الرُّؤُوسُ؟ فَقَالُوا: رُؤُوسُ خَوَارِجَ جِيءَ بِهَا مِنَ الْعِرَاقِ. فَقَالَ: كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ، كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ شَرُّ قَتْلَىٰ تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ شَرُّ قَتْلَىٰ تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ شَرُّ قَتْلَىٰ تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ طُوبَىٰ لِمَنْ قَتَلَهُمْ أَوْ قَتَلُوهُ، طُوبَىٰ لِمَنْ قَتَلَهُمْ أَوْ قَتَلُوهُ، طُوبَىٰ لِمَنْ قَتَلَهُمْ أَوْ قَتَلُوهُ، ثُمَّ بَكَىٰ قُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: رَحْمَةً لَهُمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَخَرَجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧] إلىٰ آخر الآية. ثم قرأ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ ...﴾ [آل عمران:١٠٥] إلىٰ قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:١٠٦].

فَقُلْتُ: هُمْ هَؤُلَاءِ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقُلْتُ شَيْءٌ تَقُولُهُ بِرَأْيِكَ أَمْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ؟ فَقَالَ: إِنِّي إِذًا لَجَرِيءٌ إِنِّي إِذًا لَجَرِيءٌ، إِنِّي إِذًا لَجَرِيءٌ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ حَتَّىٰ بَلَغَ سَبْعًا، وَوَضَعَ أُصْبُعَهُ فِي أُذُنِيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَإِلَّا فَصُمَّتَا.

ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تَفَرَّقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ سَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَائِرُهَا فِي النَّارِ». فَقُلْتُ: وَلَتَزِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَيْهِمْ وَاحِدَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَائِرُهَا فِي النَّارِ، فَقُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ. قَالَ: فَقُلْتُ فِي السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مَا قَدْ تَرَىٰ. قَالَ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ خَيْرٌ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالْمَعْصِيَةِ(١).

الشرح

قوله: (كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ ...) هذا فيه جرح أهل الأهواء وبيان ضلالهم، وسموا كلابًا

---

(١) حسن. أخرجه المروزي في "السنة" (٤٣، ٤٤) نحوه، وقوله: (عليك بالسواد ... إلخ) موقوف، وانظر تخريجه في "السنة" بتحقيق الهلالي. الحديث له شواهد عن عبد الله بن أبي أوفىٰ وغيره.

احتقاراً لما هم عليه من المنهج الفاسد وذمًّا لهم، وقيل: لأنهم في النار يستغيثون فيزجرون كما يزجر الكلب لا يبالىٰ به، وقد يكون المعنىٰ: أنهم من أسوإ أهل النار حالاً؛ كما أن الكلب من أسوإ الحيوانات منزلة، والله أعلم.

وفيه بيان وعيد أهل الأهواء بالنار، والقول فيه كالقول في سائر أحاديث الوعيد.

قوله: (شَرُّ قَتْلَىٰ ...) أي: الخوارج شر قتلىٰ، والمراد: في عصاة المسلمين، فالمقتولون في سبيل الباطل درجات، شرها قتلىٰ الخوارج.

قوله: (طُوبَىٰ) الجنة، وقيل: شجرة في الجنة.

(لِمَنْ قَتَلَهُمْ) هذا تحريض علىٰ قتلهم واستئصال شأفتهم، وقد جاء ذلك في أحاديث كثيرة إلا أنهم لا يقاتلون حتىٰ توجد الأسباب الداعية لذلك؛ كقتلهم للمسلمين أو تحصنهم في أماكن.

قوله: (أَوْ قَتَلُوهُ) هذا وأمثاله حجة لمن قال: إن من قتله الخوارج في المعركة ونحوها يعتبر شهيداً له أحكام الشهيد، لا يغسل ولا يصلىٰ عليه.

قوله: (فَخَرَجُوا مِنْ اَلْإِسْلَامِ) وفي رواية: (كفروا)، واختلف العلماء في تكفير الخوارج، والجمهور علىٰ أنهم مسلمون، إلا أن يظهر منهم ما يوجب الكفر؛ كقول بعضهم بإنكار القضاء، وإنكار سورة يوسف.

قوله: (فَوَاحِدَةٌ فِي اَلْجَنَّةِ) هذه بشارة عظيمة لأهل الاتباع المتمسكين بالكتاب والسنة.

قوله: (وَسَايَرُهَا فِي اَلنَّارِ) هذا وعيد لأهل الأهواء، وأنهم إلىٰ النار، إلا ما شاء الله تعالىٰ.

أو يكون المعنىٰ: أن البدع تؤدي إلىٰ أن يدخل فاعلها النار، وهذا من أحاديث الوعيد كما سبق.

قوله: (عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ اَلْأَعْظَمِ) جماعة المسلمين وإمامهم.

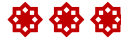


(١١٨/ ٢٢٦) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ: «يَمْرُقُونَ مِنْ اَلْإِسْلَامِ مُرُوقَ اَلسَّهْمِ مِنْ اَلرَّمِيَةِ»(١).

الشرح

(يَمْرُقُونَ) يخرجون بسرعة.

(مُرُوقَ اَلسَّهْمِ مِنْ اَلرَّمِيَةِ) الرمية: الصيد، والمعنىٰ: يخرجون من الدين خروج السهم إذا نفذ الصيد من جهة أخرىٰ، ولم يتعلق به شيء منه، وهؤلاء الخوارج يخرجون من الدين لا يتعلق بهم منه شيء، وهذه الأدلة حجة لمن كفَّر الخوارج، والجمهور أنهم لا يكفرون لأنهم متأولون(٢).



(١) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).

(٢) انظر "شرح مسلم" (٧/ ١٦٠) ط. المعرفة.

(١١٩/ ٢٢٩) عَنْ أَبِي اَلزُّبَيْرِ اَلْمَكِّيِّ قَالَ: ذُكِرَ لابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ نَاسًا يَتَكَلَّمُونَ فِي الْقَدَرِ، فَوُصِفَ لَهُ بَعْضُ مَا يَقُولُونَ، فَقَالَ: أَهَلْ فِي اَلْبَيْتِ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَأَقُومُ إِلَيْهِ فَأَفْرُكُ رَقَبَتَهُ؟(١).

(١٢٠/ ٢٣٠) عَنِ اِبْنِ مَهْدِيٍّ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ عَنْ اَلْأَهْوَاءِ أَنَّهَا خَيْرٌ؟ فَقَالَ: جَعَلَ اَللهُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَمَا هِيَ إِلَّا زِينَةٌ مِنْ اَلشَّيْطَانِ، وَمَا اَلْأَمْرُ إِلَّا اَلْأَمْرُ اَلْأَوَّلُ(٢).

(١٢١/ ٢٣٥) عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ لِي أَبِي: أَيْ بُنَيَّ لَا تُجَالِسْ مَفْتُونًا فَإِنَّهُ لَا يُخْطِئُكَ مِنْهُ إِحْدَى خَصْلَتَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَسْتَزِلَّك، وَإِمَّا أَنْ يُمْرِضَ قَلْبَكَ(٣).

(١٢٢/ ٢٣٦) عَنْ أَيُّوبَ قَالَ: قَالَ أَبُو قِلَابَةَ - وَكَانَ واللهُ مِنَ اَلْفُقَهَاءِ ذَوِي اَلْأَلْبَابِ - : لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ اَلْأَهْوَاءِ وَلَا تُجَادِلُوهُمْ، فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ أَوْ يُلَبِّسُوا عَلَيْكُمْ كَمَا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ(٤).

(١٢٣/ ٢٣٨) عَنْ أَبِي اَلْجَوْزَاءِ قَالَ: لَئِنْ يُجَاوِرُنِي فِي دَارِي هَذِهِ قِرَدَةٌ وَخَنَازِيرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مَنْ أَنْ يُجَاوِرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ اَلْأَهْوَاءِ، وَلَقَدْ دَخَلُوا فِي هَذِهِ اَلْآيَةِ يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾ [آل عمران:١١٨](٥).

---

(١) أخرجه الآجري رقم (٥٤٠٩ من طريق محمد بن عبيد المكي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منقطع، وسند المؤلف ضعيف.

(٢) في سنده نظر.

(٣) صحيح. أخرجه البيهقي في "الاعتقاد" (ص ١٣١)، وابن بطة في "الإبانة الكبرى" (٤٣٣).

(٤) صحيح. أخرجه الدارمي (١/ ١٠٨)، واللالكائي (٢٤٤) وغيرهما.

(٥) حسن. أخرجه اللالكائي (٢٣١)، وابن بطة (٤٦٦) وغيرهما.

الشرح

هذه الآثار فيها التحذير من أهل الأهواء ومن مجالستهم، ومن مفاسد مجالستهم:

١- أن يستزلك إلىٰ باطله فتضل.

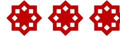
٢- أن يمرض قلبك بالشبه التي يلقيها.

٣- أن يلبسوا عليك الحق حتىٰ يشككوك فيه.

٤- سوء جوارهم؛ لكثرة فسادهم وعدوىٰ مرضهم.

وقال البربهاري رحمه الله تعالىٰ: إذا رأيت الرجل مجتهداً في العبادة متقشفًا محترقًا بالعبادة صاحب هوىٰ؛ فلا تجلس معه، ولا تسمع كلامه، ولا تمش معه في طريق؛ فإني لا آمن أن تستحلي طريقه فتهلك معه(١).

قال الشيخ صالح الفوزان غفر الله له: فالبدعة شرٌّ من المعصية، والمبتدع شر من العاصي؛ فهو خطير جداً، إذا مشيت معه وجالسته فإنه تسري عليك بدعته فتكون مبتدعـًا(٢).



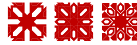
(١) "السنة" للبربهاري.

(٢) "شرح السنة" (٢/ ٢٢٩-٢٣٢) بتصرف.

(١٢٤/ ٢٣٩) عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَدْرِي أَيُّ اَلنِّعْمَتَيْنِ أَعْظَمُ عَلَيَّ؛ أَنْ هَدَانِي إِلَىٰ اَلْإِسْلَامِ أَوْ أَنْ جَنَّبَنِي اَلْأَهْوَاءَ(١).

الشرح

نعمة الإسلام أعظم، لكن كلامه هذا يشير به إلىٰ خطر الابتداع، وأنه مقارب للشرك، أو مؤدٍّ إليه، فمن هداه الله تعالىٰ للإسلام الصافي من شوائب الشرك والبدع؛ فقد أتم عليه النعمة، فليلزم الصراط المستقيم.



---

(١) حسن. أخرجه الدارمي (١/ ٩٢) وغيره.

٤٢- باب فِي اِسْتِتَابَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَاخْتِلَافِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَكْفِيرِهِمْ

قَالَ مُحَمَّدٌ: اِخْتَلَفَ أَهْلُ اَلْعِلْمِ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ اَلْأَهْوَاءِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمْ كُفَّارٌ مُخَلَّدُونَ فِي اَلنَّارِ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَبْلُغُ بِهِمْ اَلْكُفْرُ وَلَا يُخْرِجُهُمْ عَنْ اَلْإِسْلَامِ وَيَقُولُ: إِنَّهُمْ اَلَّذِينَ عَلَيْهِمْ فُسُوقٌ وَمَعَاصٍ إِلَّا أَنَّهَا أَشَدُّ اَلْمَعَاصِي وَالْفُسُوقِ، وَهَذَا مَذْهَبُ مَشَايِخِنَا بِالْأَنْدَلُسِ، وَاَلَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ فِيهِمْ وَكَانُوا يَقُولُونَ لَا يُوَاضِعُ أَحَدٌ مِنْهُ اَلْكَلَامَ وَالِاحْتِجَاجَ وَلَكِنْ يُعَرَّفُ بِرَأْيِهِ رَأْيَ اَلسُّوءِ وَيُسْتَتَابُ مِنْهُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

الشرح

ختم المؤلف كتابه في: هل تقبل توبة المبتدع أم لا، وهل يكفر أم لا؟

أما كفرهم فجمهور أهل العلم أن المبتدعة من المسلمين لا يكفرون إلا إذا وصلت بدعتهم إلىٰ الكفر؛ كالجهمية والقرامطة والخطابية وما أشبهها فهؤلاء كفار.

وأما التوبة فقول المؤلف هو الراجح كما سيأتي.

وهذا الباب دعوة لأهل البدع لأن يتوبوا ويرجعوا إلىٰ الحق.

في هذا الباب حكم توبة المبتدع، وحكم عقوبته بالقتل ونحوه ... وحكم تكفيرهم.

❋ أما المسألة الأولىٰ: توبة المبتدع:

إذا جاء بشروط التوبة فمقبولة؛ لعموم الأدلة الآمرة بالتوبة، فالله تعالىٰ يقبل توبة المشرع، فالمبتدع من باب أولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ...﴾ [الزمر:٥٣] الآية.

وذهب بعض العلماء إلىٰ أنه لا تقبل توبة المبتدع، واستدلوا بحديث: «إن الله حجز التوبة عن كل صاحب بدعة حتىٰ يدع بدعته».

وأجيب عنه بأنه إذا تاب فقد ترك بدعته، والله تعالىٰ يتوب عليه، وإنما جاء الحديث ليبين أن

كثيراً لا يوفَّق للتوبة، ولا تيسر له، وذلك لأنه يرىٰ أنه علىٰ هدىً[١].

*** المسألة الثانية: تكفير أهل البدع:**

وفيها ثلاثة أقوال:

١- يكفرون مطلقًا كفراً أكبر.

٢- لا يكفرون مطلقًا.

٣- التفصيل في المسألة، فالبدعة تنقسم إلىٰ قسمين: مكفِّرة وغير مكفِّرة.

فما كان فيها كفر فصاحبها كافر خارج من الإسلام إذا تمت الشروط وانتفت الموانع.

وما كان دون ذلك كان من الفسوق، وهذا هو القول الراجح الذي عليه المحققون[٢].

*** المسألة الثالثة: عقوبة أهل البدع:**

عقوبة المبتدع مشروعة بما يُرىٰ أنه يستحقه من هجر أو ضرب أو سجن أو قتل ... وهذه العقوبة هي من النهي عن المنكر.

أما القتل فلا يكون إلا لمن بلغ حد الردة ببدعته؛ كالجهم، وغيلان، والحلاج، وابن عربي، ونحوهم، عملاً بقول النبي ﷺ: «من بدَّل دينه فاقتلوه»، رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأدلة التحريض علىٰ قتل الخوارج تدل علىٰ قتل المبتدعة إذا كانوا جماعة ذات بأس منابذين للأمة، وإن لم يكونوا كفاراً.

****

(١) وقد بسطنا الكلام علىٰ هذا الباب في شرح ابن وضاح "النهي عن البدع"

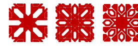
(٢) انظر "الفتاوىٰ" (٧/ ٦١٨-٦١٩)، "موقف أهل السنة من أهل الأهواء" (١/ ١٦٣-٢١٠).

(١٢٥/ ٢٤٣) عَنْ مَالِكٍ عَنْ عَمِّهِ قَالَ: سَأَلَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ: مَا تَرَىٰ فِي هَؤُلَاءِ اَلْقَدَرِيَّةِ؟ فَقُلْتُ: أَسْتَتِيبُهُمْ، فَإِنْ قَبِلُوا ذَلِكَ وَإِلَّا فَأَعْرِضُهُمْ عَلَىٰ اَلسَّيْفِ. فَقَالَ عُمَرُ: وَأَنَا أَرَىٰ ذَلِكَ[1].

الشرح

وقتل عمر لهؤلاء لأنهم قالوا بالكفر، وهو: نفي القدر، أو لأن ضررهم خطره عظيم علىٰ الأمة، فكان قتلهم من باب أخف الضررين.

وإذا رأىٰ الإمام قتل المبتدعة من أهل الإسلام فإنما يقتل زعماءهم ودعاتهم دون عامتهم، والله أعلم.



(١) صحيح. أخرجه الآجري (٥١١) وغيره، وسنده صحيح، وله طرق.

خاتمة

قَالَ مُحَمَّدٌ: قَدْ أَعْلَمْتُكَ بِقَوْلِ أَئِمَّةِ اَلْهُدَىٰ وَأَرْبَابِ اَلْعِلْمِ فِيمَا سَأَلْتُ عَنْهُ وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ أُصُولِ اَلسُّنَّةِ اَلَّتِي خَالَفَ فِيهَا أَهْلُ اَلْأَهْوَاءِ اَلْمُضِلَّةِ كِتَابَ اَللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ وَنَبِيِّهِ ﷺ، وَلَوْلَا أَنَّ أَكَابِرَ اَلْعُلَمَاءِ يَكْرَهُونَ أَنْ يُسطَّرَ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِهِمْ وَيُخَلَّدَ فِي كِتَابٍ، لَأَنْبَأْتُكَ مِنْ زَيْغِهِمْ وَضَلَالِهِمْ بِمَا يَزِيدُكَ عَنْ رَغْبَةٍ فِي اَلْفِرَارِ عَنْهُمْ.

وَنَعُوذُ بِاَللهِ مِنْ فِتْنَتِهِمْ عَصَمَنَا اَللهُ وَإِيَّاكَ مِنْ مُضِلاَّتِ اَلْفِتَنِ، وَوَفَّقَنَا لِمَا يُرْضِيهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَقَرَّبَنَا إِلَيْهِ زُلَفًا زُلَفًا.

وَصَلَّىٰ اَللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا آخِرَهُ، وَحَمِدَ لِلَّهِ وَحَمِدَهُ وَصَلَوَاتُهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ دَائِمًا أَبَدًا إِلَىٰ يَوْمِ اَلدِّينِ، آمِينَ.

الشرح

قوله: (قَدْ أَعْلَمْتُكَ) أي: فيما مر من فصول الكتاب.

قوله: (مِنْ كَلَامِهِمْ) أي: من كلام أهل الأهواء، حتىٰ لا يكون فتنة للجاهلين، وإنما يذكر من كلامهم ما اشتهر ويرد عليهم عقبه ويكشف عواره حتىٰ لا يغتر به.

وإلىٰ هنا نكون قد فرغنا من هذا التعليق المختصر، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ونعوذ به من مضلات الأهواء، ونسأله العصمة من البدع والفتن والعصيان.

ونبتهل إليه أن يثبتنا علىٰ الكتاب والسنة حتىٰ نلقاه ... آمين.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

****

الفهرس

